طالب الرفاعي

دوخي
تقاسيم الصبا

رواية

دار الشروق

مكتبة ياسمين

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

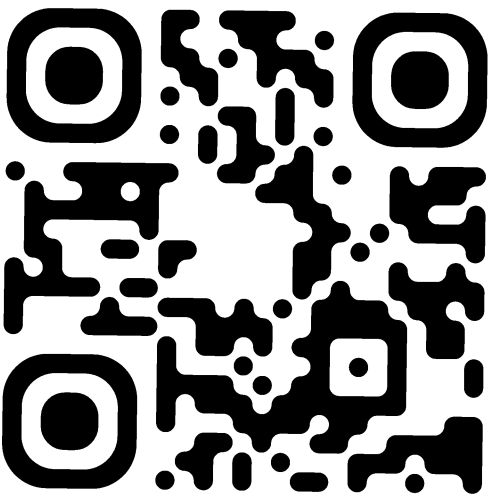

دوخي

تقاسيم الصبا

telegram
@yasmeenbook

دوخي... تقاسيم الصبا

طالب الرفاعي

الطبعــة الأولى ٢٠٢٥
طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٢٦

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

تصميم الغلاف: محمود عبده

تصحيح لغوي: معاذ الجمل

رقــم الإيداع ٢٠٢٥/٣٠٦٧٠
ISBN 978-977-09-4006-8

© دار الشروق

٧ شــارع سيبويــه المصــري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

الرفاعي، طالب،
دوخي.. تقاسيم الصبا/ طالب الرفاعي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٥
٢٧٢ ص، ٢٠سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٤٠٠٦٨
رقم الإيداع ٢٠٢٥/٣٠٦٧٠
١- القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

طالب الرفاعي

دوخي
تقاسيم الصبا

دار الشروق

أمي الغالية، موضي الفهد.
إليك مرة جديدة ودائمًا!

«الموسيقى غذاء كل المحبّين»

جلال الدين الرومي

نوخذة الطرب

بداية، أتقدّم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان للأديب طالب الرفاعي على ما بذله من إبداعٍ مميّز وجهدٍ أدبي مخلص في كتابة الرواية، مما يدلّ على حرصه في سرد سيرة والدي الفنيّة الغنيّة، بما قدّمه لبلده الكويت ووطنه الخليجي والعربي.

لقد فكّرت كثيرًا في أن أصف والدي الفنان عوض دوخي ـ يرحمه الله ـ في كلمات قليلة ويعذرني عزيزي القارئ إن لم أُصِبْ فيما أطلقت من لقبٍ على والدي. فإن قلت هو مثل الذّهب فلقد ظَلَمته؛ لأنّ الذهب في صعودٍ تارة ونزولٍ تارةً أخرى، لكن والدي كان في صعود وازدهار مستمرَّين من عدّة جوانب منها: الجانب الفني والجانب الإنساني منذ بداياته إلى أن توفّاهُ الله. وهنا أتذكّر كلمة الشيخ جابر العلي نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الإعلام الأسبق ـ يرحمه الله ـ حينما خاطب والدي وهو في نهاية مسيرته قائلًا: «إنّ جميع المطربين حينما يكبرون يتأثّر صوتهم وهذا أمرٌ طبيعي، إلا عوض دوخي كلّما كبر زادت حلاوة صوته الرّخيم!».

إن حقَّ القول فوالدي الفنان عوض دوخي مثل «الأنتيك»؛ أي القطعة النادرة التي يصعب وجودها وتكرارها، وذلك بكل ما يملك من أحاسيس ومشاعر أبدع في إيصالها إلى متذوّق الفن الكويتي والخليجي خاصةً والعربي عامةً من خلال أغانيه وألحانه، ومن خلال مقابلاته الإذاعية وطريقة سرده لسيرته الغنيَّة بالكثير من الأشياء الرائعة.

تعايشت كثيرًا مع أغاني والدي، واستمتعت بطريقة أدائه الفريدة من نوعها، وتلذّذت بسماع ألحانه سواء لأغانيه أو لغيره من المطربين. فلقد عاصر والدي فترة ما قبل ظهور النفط، وركب على ظهر السفن الشراعية ما يقارب تسع أو عشر رحلات بحرية، ما بين الغوص للبحث عن اللؤلؤ، والسَّفر لنقل البضائع، وقد مارس عشقه في الغناء على ظهر السَّفينة أي «نهّام»، وفيما بعد واكب عصر التطوّر والعمران في بلادي الحبيبة الكويت، حيث أصبح مطربًا في وزارة الإعلام الكويتية.

إن كان لي أن أطلق لقبًا يختصر السنين الطويلة والشّاقة التي عاشها والدي، فإنَّ الفنان عوض دوخي يستحق بجدارة لقب: «نوخذة الطرب».

رحمك الله يا والدي، يا أبا فهمي، وأسكنك فسيح جنانه.

باسم عوض دوخي

جميلُ صنعٍ

تفضّل الأصدقاء: الموسيقي الدكتور يوسف الرشيد، والباحث في التراث الموسيقي الدكتور أحمد الصالحي، والدكتور الموسيقي فهد الفرس بمراجعة وتدقيق المادة الموسيقية في الرواية، فلهم جزيل امتناني وتقديري!

شكرٌ محبةٍ

للأصدقاء: الأستاذ الدكتور مرزوق يوسف الغنيم، والأستاذ أنيس الرافعي، وفهمي وباسم عوض دوخي، على قراءة الرواية وإبداء ملاحظات مهمة بشأنها!

مساء الأحد ١٦ ديسمبر ١٩٧٩، بين العاشرة والنصف مساءً والثانية فجرًا، أضاءتْ بُروق ذكرياتٍ مخيّلة الفنان عوض دوخي بأطيافِ حياةٍ عاشها.
لامعةً ارتفعتْ محطّات عمرِه لتبقى حاضرةً أبدًا!

telegram
@yasmeenbook

سيرةُ فنَّانٍ

ترسم خيالّات الرواية سيرة حياة الفنان عوض دوخي، لتأتي أحداث وحوارات الزمن اللحظي/ الآني بخطٍّ داكن مغلّظ «Bold»، في حين تكشف الذكريات نفسَها بالخط العادي.

مشهد أول

رِيحٌ تُنَادي

الأحد، ١٦ ديسمبر ١٩٧٩،
الساعة ١٠:٣٠ مساءً

مَنْ تُنادي الريحُ الليلة؟

لماذا اشتدّ عصفها؟ سأل عبد الله المحبوب نفسه. لأول مرة يُخيفُني جنونها! أشعر بها لابدةً خلف شُبَّاكَي الغرفة، تُعربد وتعوي بصراخها!

الله يستر، وتمرّ هذه الليلة على خير!

وقف عبد الله وقد لفَّ شماغًا أحمر حول رأسه، مُتابعًا برجاءِ قلبِه فحصَ الطبيب لابن خالته عوض، في حين وقفت إلى جانبه خالته أم عوض، وأم فهمي زوجه عوض، ويوسف شقيق عوض.

برْد! أسرَّ الطبيب لنفسه: ما كنتُ لأخرج لأي مريض في مثل هذه الساعة المتأخرة.. صديقٌ عزيزٌ اتصل بي راجيًا: «اعتبرها خدمة لي، الرجل صوت الكويت الأجمل، من المؤكد أنك تعرف المطرب عوض دوخي. ثم إن بيته قريب منك في منطقة «المقوع الشرقي»، خلف مبنى سينما الحمراء».

عوض ممدد فوق مطرح على الأرض لا يظهر منه سوى رأسه المغطّى بـ«قحفيّة» على مخدة بيضاء.

«ممكن كرسي». طلب الطبيب.

أحضر يوسف كرسيًّا من زاوية الغرفة.. أزاح الطبيب الغطاء عن صدر المريض ففوجئ بهزال جسده من خلف دشداشته الثخينة. انحنى عليه يتأكد من أنفاسه. استخرج سمّاعة الفحص

للتأكّد من جريان التنفّس. أصاخ له السمع لالتقاط دخول الهواء وخروجه، فاستشْعر كم هو ضعيف! ركّز انتباهه بسمعه، فأحسَّ وكأن الأنفاس إلى تباطؤ. وبغية التأكد من وعي المريض، علّق سمّاعته في رقبته. استخرج مصباحًا صغيرًا. بهدوء فتح عين عوض. سلّط ضوءًا على البؤبؤ لفحص درجة وعي المريض. انتفض البؤبؤ، فتأكد الطبيب أن المريض واعٍ. انتقل بالمصباح إلى العين الأخرى، وكذا كانت الاستجابة بوعيٍ المريض.

دار بعقل الطبيب: المريض بوعيه، لكنه يُصارِع تعب أنفاسه بخفق قلبه. ربما هي لحظاته الأخيرة. لن أقول شيئًا. لن أُخبِر أهله أنه..

جاءه عواء الريح في الخارج. شَعَرَ كأن بردًا يتسلل من مكان ما. انتبه لمدفأة صغيرة بقضيبين يومضان باحمرارهما على البعد. حاول بلع تأثّره. تردد يُصارح أهل المريض بما دار بباله. اعتدل واقفًا، بردائه الأبيض والسماعة تتدلى حول رقبته. سأل عبد الله الواقف بنظراته المنكسرة إلى جانبه: «منذ متى المريض على هذه الحال؟».

«خرج من المستشفى منذ ثلاثة أيام، لكن أمس واليوم ساءت حالته».

تنهّد الطبيب. رفَّ عرقٌ صغير أعلى حاجب عبد الله. أوضح يوسف: «عاد من رحلة علاج في لندن منذ ثلاثة أسابيع».

انقبض قلب أم فهمي. أوضح الطبيب: «ربنا يشفيه!».

«ألا يمكنك عمل أي شيء؟». سألت أم عوض.

«آسف، لا شيء يمكنني عمله. كنتُ أتمنى لو أستطيع المساعدة!».

«هل تفضّل نقله إلى المستشفى؟» سأل يوسف.

«لا أظن أن المستشفى ستساعد حالته».

ارتطمت الجملة بوجه أم فهمي، فخفق قلبها. رددت بخوفٍ: «يا ألله.. سترك!».

انتبه الطبيب لأثر جملته، واستدرك يهدئ من روع المرأة: «يمكنكم نقله غدًا صباحًا إلى غرفة العناية المركّزة».

أعاد الطبيب الغطاء على صدر المريض، ثم تَقَدَّمَ ليخرج من الغرفة مُنهيًا زيارته.

«لحظة من فضلك». استوقفه عبد الله مادًّا يده لجيبه، فبادر الطبيب: «شكرًا لا داعي، لم أعمل شيئًا».

وخطا يفتح درفة الباب. أبصر شابًّا يقف في برد الحوش منتظرًا برأسٍ عارٍ ووجهٍ يغشاهُ الجزع، بادر سائلًا:

«شلون الوالد؟». ردَّ الطبيب بنبرة محايدة: «الله كريم».

«أوصل الطبيب إلى الباب». أشار عبد الله مُخاطبًا فهمي.

«سأخرج أنا معه». بادر يوسف.

ابتعد الطبيب بصحبة يوسف وفهمي. أعاد عبد الله الكرسي لمكانه. وصوت أم فهمي: «ما سبق أن تعب مثل هذه الليلة.

أعرف نظراته، منذ أمس يحاول أن يقول شيئًا لكنه لا يستطيع..». اختنقت بعَبرتها.

حاول عبد الله التخفيف عنها: «اذكري الله. رحمة الله واسعة. سبحانه قادر على كل شيء».

مسحت أم فهمي دموعها بطرف بوشيتها السوداء قائلة: «أعود أجلس مع العيال، كلّهم خائفون على أبيهم، ولا أدري ماذا أقول لهم».

«ادعوا رب العالمين له!». ردّت عليها أم عوض.

«ونعم بالله!». خرجت أم فهمي ودخل يوسف.

«الطبيب فضّل نقله صباحًا إلى غرفة العناية المركّزة في المستشفى». خاطب عبد الله خالته، التي راحت تنظر إلى ولدها الممدد في فراشه، وكل ما في وجهها يرشح بالبكاء.

فجأة انتحب يوسف، فبادرته أمه: «لا تبكِ على رأس أخيك.. ما زال حيًّا!».

مسح دموعه بطرف شماغه: «لا أستطيع رؤيته بهذه الحالة، سأذهب لأجلس مع أختي أم بدر».

انسحب خارجًا، ظلت الأم واقفة تنظر لولدها.. حلَّ صمتٌ في الغرفة، وحضر عواء الريح الغاضبة عاليًا في الخارج.

«الله يرحم حالك يا وليدي». بعثت الأم جملتها بأسى، وكأنها تكلّم نفسها، واستدارت لتخرج.

جلس عبد الله على السجادة قرب رأس عوض.

الريح مشتطّة بجنونها في الخارج، وكأنها تُنادي على شيءٍ ما!

«عوض أخوك». أذكر تلك الحادثة. كنتُ جالسًا مع خالتي أم عوض، حين دخل عوض، فنهضتُ استقبله: «هلا بعوض..». قلتُ بمحبّتي، لكنها اعترضت: «لا تقُل هلا بعوض، قُل هلا بأخوي!».

يومها ابتسم عوض في وجهي، وبنبرة صوته الطيبة أكمل باسمًا: «اسمع كلام خالتك يا ولد!».

«حاضر يا خوي». قلت له وضحكنا معًا.

رفع عبد الله وجهه ناظرًا إلى وجه عوض الممدد على فراشه. التقت نظراتهما فانتبه لصمت الغرفة ببردها. تذكّر أمرًا. نهض من مكانه. قصد مسجّلًا صغيرًا يستقر في زاوية «الروشنة»، ضغط زر التشغيل، فانطلق صوت المقرئ الحاج محمود عبد الوهاب.

ظُهْر اليوم، في آخر عهد عوض بالكلام خاطبني بصوتٍ واهن: «أريد سماع تلاوة القرآن من الحاج محمود عبد الوهاب».

هززت رأسي باشًّا في وجهه: «أعرفك؛ منذ مطلع شبابك تهيم بتلاوة هذا المقرئ!». بانَ طيف ابتسامة باهتة على وجهه، فقلت قاصدًا تحريك شيء في قلبه: «أنا أذكر كيف كنتَ تُقلّد تلاوته».

عاد عبد الله لمكانه. بلع ريقه، وهمس نفسه: كان الله في عونك يا عوض. لا أدري لماذا أنا خائف عليك الليلة!

ساد الغرفةَ صمتٌ، يبخّره صوت المقرئ الشجي! ويُعكّره عويل الريح بصراخها في الخارج!

الساعة جاوزت العاشرة والنصف.

حوار نظراتٍ صامت يدور بين الرجلين: فيمَ يفكّر عوض؟ يفتح عينيه بين فترة وأخرى. سأل عبد الله نفسه. كأنّ «عوض» يودّ لو يقول شيئًا، ومن ثم يبتعد بنظراته صوب السقف. أشعر وكأن شبح ابتسامة يعبر وجهه. وما ألبث أن ألمح تندّي زاوية عينيه بدمعة لا يقوى على دفعها. أميل عليه أمسح دمعه بشماغي، فتتكسّر عبرةٌ في صدري!

* * *

صباح اليوم، حين طلبتْ مني خالتي أم عوض المجيء للبقاء إلى جانبه، لم يأتِ شيءٌ على بالي سوى السجائر. أحضرت ثلاث علب..

معًا بدأنا التدخين أنا وعوض منذ بدايات شبابنا، كان «التتن» وسجائر اللف بمتعة لفّ ورقها الرقيق، ومن ثم جاءت السجائر دون فلتر، وأخيرًا وصلت الأنواع الأجنبية.

أطفأتُ السيجارة قبل مجيء الطبيب.. يمدّ عبد الله يده يتناول علبة سجائر «المارلبورو». ينتبه إلى أن العلبة الأولى انتهت. يفتح العلبة الثانية، ويسحب سيجارة منها. يُولعها ويمتصُّ بِشَرَهٍ نَفَسًا منها!

كأنك اشتقتَ إلى السيجارة والتدخين.. فيمَ تفكر يا ولد خالتي؟!

* * *

عبد الله ولد خالتي جالس قرب رأسي.. كأنه لا يسمع صوتي!

ذكريات عمري تلمع راكضة أمامي. تأتي إليَّ كأوضح ما يكون!

أشعر وكأن دويّ ريحٍ يملأ أُذنيَّ!

لا أدري متى جاء! صاحبي يقف صامتًا قرب الروشنة.

خلال الأيام الماضية لم يحضر.. قبل قليل رفعت رأسي، ففوجئتُ به واقفًا. بدا مُستمتعًا ينصت لتلاوة القرآن. فرح قلبي، استبشرت خيرًا بحضوره. مرات كثيرة وجّهني بنظراته. بقيت أنظر إليه على أمل أن تلتقي نظراتنا. لكن، وعلى غير عادته شعرت به صادًّا عني، لم ينظر إليَّ!

يقف على بُعد خطوات مني. لا أنا أستطيع الوقوف والمشي نحوه، ولا هو راغبٌ في المجيء إليَّ. يقف وكأنه ينتظرُ وصول شيءٍ ما!

ما غاب عني طَوال عمري.

أبقيت الحلم ووجه صاحبي حبيسَيْ صدري وخيالي. لم أتلفّظ بهما لإنسان قطّ. مرات أقول لنفسي: هذه تهيّؤات، وليس من حلمٍ قد مرَّ بي. لكن وفي لحظات بعينها يلوح لي وجهه واضحًا على البُعد والقرب، فأردِّد بيني وبين نفسي: ها قد حضر صاحبي! وكم شغلني السؤال: هل لكل إنسان صاحب؟

مُعرِضٌ هو عني الليلة!

ربما، وحدي أنا الطفل الذي رأى كيف ولدته أمه!

كنا نسكن منطقة «شرق»، بيتنا في «فريج المطبّة». أذكر جدران وسقف تلك الغرفة الواطئ بعوارضه

الخشبية السوداء. كان الوقت ليلًا، وذُبالة فانوس ذاوية بالكاد تُنير ما حول أمي، وقد وُضِعَ الفانوس على طاولة خشبية صغيرة بقربها. في حين عُلّق آخر مُدخَّن بجانب المدخل.

أمي ممددة فوق بساطٍ على أرضية الغرفة الترابية، وأنا طفل أقفُ لصق الجدار الطيني خلف رأسها. أميّز وجه جدتي بخوفها جالسة قرب أمي، وإلى جانبها امرأة مُسنّة لم أميّز وجهها.. كنتُ أشعر بقلبي يدقّ بخوفي، وأنا أبصرُ دماءً تلوّث خِرقة بيد المرأة المسنّة.

خُيّل إليَّ أن ولدًا جاء ليقف إلى جواري خلف رأس أمي. استغربت الأمر! مَنْ هذا؟ من أين جاء، ولماذا يقف إلى جانبي؟ رحت أدنو منه. أمدُّ يدي فلا تلمسه. ولدٌ صغيرٌ ربما كان بعمري

أو أكبر قليلًا. شبهٌ ما يجمع بيننا. يلبس دشداشة بيضاء لامعة، ووجهُه بشوش ببشرة حنطاوية، ونظرة عينيه توشك أن تخاطبني بشيء ما. أدنو منه أكثر علّني ألتصقُ به. يبقى في مكانه دون أن أصل إليه!

واضحًا يتبدّى الحلمُ لي الليلة.

أتمنى لو أخبر عبد الله به. لكن دوي الريح يملأ أُذنيّ ويُضايقني!

«الآن ستلِدك أمك». كلّمني الولد. استغربت جملته. شعرتُ بأمي تصرخ، ورأيت يدَيِ المرأة العجوز تسحبان طفلًا مُلطّخًا بالدم من حضن أمي.

في كل مرة يحضرُ الحلمُ طازجًا لامعًا لم يتبدّل!

في تلك الليلة سمعتُ صوت الولد يخبرني: «هذا أنتَ!».

«الحمد لله.. ربي لكَ الحمد!». لهجتْ جدتي بفرحها، ونهضتْ مسرعة تغادر الغرفة. بقيتُ أنا مفزوعًا أوزّع نظراتي بين أمي المتألّمة، والطفل المولود المُلطّخ بالدم، والمرأة المسنّة. مُسرعة عادت جدتي تحمل قدرًا مسودًّا بين يديها. انحنت تضعه على الأرض. تناولت المرأة خِرقة غطّستها بماء القدر، ومن ثم عصرتها لتمسح بها جسم الطفل الباكي.

«ستقطع الداية حبل سرتك». عاد صوت الولد يُنبّهني، لكن عينيّ ظلّتا تراقبان المرأة. تناولتْ مقصًّا بقربها. قطعت حبل

السرة. نهضتْ جدتي لتستر بطن أمي وباقي جسدها. غطّتها بشرشف.. نهضتْ المرأة تحمل المولود الباكي، قرّبته من وجه أمي، وخاطبتها: «ولد ما شاء الله!».

لا أدري كيف تحرك الولد الصغير، تركني في وقفتي لصق الجدار؟! فجأة رأيته يجلس مُتربّعًا بين جدتي وبين المرأة الداية. حملتني الداية ووضعتني في حضنه. جعل ينظر في وجهي، ويرفع وجهه ناظرًا إليَّ في وقفتي لصق حائط غرفتنا الطيني، الذي راح يدفعني ضاغطًا ظهري. رفعني بين يديه. نفخ بشيء في أذني اليمنى، ثم اليسرى وأخيرًا في فمي، قبل أن يُعيدني لحضن الداية، وينهض قاصدًا أمي. وشوشها بكلامٍ فأشرق وجهها بابتسامة وضّاءة محت تألّمها. تمنّيت لو أسمع ما قاله لأمي. انتبهتُ إلى أن ثوبه الأبيض ظل نظيفًا لامعًا لم تمسّه أو تبقّعه أي نقطة دم، ولا لحق به أي اتساخ.

لا أعرف كيف عاد ليقف إلى جانبي لصق الجدار. وددتُ لو ألمسه. دنوت منه. لكن فجأة تحرّك، ليقف مُنتصبًا في مواجهتي، ونظرة عينيه تكاد تأكل وجهي. تقهقرت أضغط ظهري أكثر في الجدار. لا أدري كيف؛ راح وجهه وجسده يتغيّران، جعلتُ أرتجف والجدار يرتعد خائفًا مثلي يدفعني إلى الأمام. أصبح الولدُ صبيًّا، وما لبث أن صار شابًّا بشاربٍ مُشذّب. شعرتُ

بقشعريرة تهزُّ جسدي، أخافني تغيّره. نظرتُ أبحث عن أمي وجدَّتي، لكن الغرفة كانت خالية بأرضيتها الترابية، وليس سوى السقف الواطئ بعوارضه الخشبية، وضوء الفانوس الأصفر المُدخّن، والولد الشاب ينتصب أمامي. وحدها نظرة عينيه ظلت تُحيط بوجهي، كأنها تُخاطبني لتقول شيئًا ما. لا أدري كيف تهجّأت جملتي: «مَنْ أنتَ؟!».

لكن في هذه اللحظة، وفي كل مرة، أستيقظُ من نومي فزِعًا، ونظرة عينيه معي، تكاد تكلمني ناطقة بشيء ما! مرات كثيرة تساءلت: هل حقيقةً هذا الشاب الحلم موجود من حولي، أم إنني اخترعته ورحت أُغذّيه بخيالي؟ لكن، منذ طفولتي، وكلما وقعتُ في مأزق أو مشكلة كبيرة تجسَّد لي وجهه بنظرته الناطقة، وكأنه يقول لي: أنا منك، وسأبقى إلى جانبك!

بقيت طوال عمري أتمنى لو أن أحدًا أخبرني بأنه يرى ظلال وجهٍ تبرز له بين وقت وآخر. لكن..

الليلة ولسبب ما جاء صاحبي ليكون بقربي. يقف هناك عند الشباك بجانب الروشنة، قرب تلاوة المقرئ.. ليته ينظر إليَّ!

أتمنى لو يدنو مني.

بعد موت أبي بسنوات أخبرتني أمي: «والدك سمّاك عوض».

أحب حكايات أمي. تتكلم ببُطء ملوِّنة نبرة صوتها بكلمات حكايتها: «أبوك قال: حلمتُ وكأن صوتًا جاءني في المنام، ناداني قائلًا: «سمّي مولودك عوض!». تسكت أمي وكأنها تستحضر كلمات أبي: «المرحوم أخبرني: سأسمّي ولدنا «عوض»، عسى ربي يعوّضنا خيرًا فيه!».

أحببت حكاية أمي، ومرارًا تفكّرت في قول أبي، ودار ببالي: كيف يمكنني أن أُعوّض أهلي خيرًا؟

* * *

انتبه عبد الله، وكأن نظرة متسائلة تطفو على وجه عوض. مال عليه يتأكد من انتظام تنفّسه: «تكلّم يا خوي، قُل أي كلمة».

منذ ثلاثة أيام وهو مُمدَّد على فراش مرضه. بالكاد يزدرد لقمة أكل ليّنة توضع في فمه. خالتي أخبرتني:

«صباح اليوم أردنا نقله إلى المستشفى، غير أنّه رفض بشدة». انزعج مُردِّدًا: «لا أريد المستشفى!».

قالت: «طوال اليومين الماضيين، ولحظة يدخل عليه أي أحدٍ، يفرح وجهه محاولًا التحدث إليه، يُتمتم بكلمات بعضها واضح وبعضها..».

بعد حضوري وجلوسي بقربه ظهر اليوم، ربما بعد العصر، فجأة انحبس صوته ولم يبقَ منه سوى نظرات عينيه بأنفاسه التعِبة.

الطبيب قبل قليل قال: «المستشفى لن تساعد بشيء».

أخافتني نبرة جملته.. غدًا صباحًا سأطلب الإسعاف، وأنقل «عوض» إلى المستشفى، حتى لو اعترض.

الله يمرر هذه الليلة على خير.

جنون الريح بعويلها يزداد خارج الغرفة.

يمدُّ عبد الله يده لعلبة سجائره، ويرفع وجهه متضرِّعًا: يا رب ساعد عبدك الضعيف.

يا أرحم الراحمين يا ألله!

غريب! كأن الريح تشتدُّ أكثر في الخارج!

فجأة ينفتح الباب. يدخل يوسف مُلقيًا بجملته ووجع قلبه: «والله لا أعرف كيف أجلس هناك وعوض ممددٌ هنا!».

* * *

مشهد ثانٍ

موسيقى المطارق

الأحد، ١٦ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١٠:٤٥ مساءً

وحده صوت المقرئ الشجي يملأ هدوء الغرفة. ينفتح الباب. يطلُّ وجه أخت عوض: «يا هلا أم بدر». يرحب بها عبد الله، فتبادر بسؤالها: «بشّر يا خوي، شلونه؟».

«بيد الله».

«ماذا قال الطبيب؟».

«لم يقُل شيئًا».

«أمي ردّت منكم باكية!».

«أبكتنا كلنا». علّق يوسف

احتار عبد الله بماذا يردّ. أشار لأم بدر: «تعالي اجلسي، عوض يحبك، وربما تكلم إذا رآك..».

تخطو بحزن وجهها، تقف شاخصة لوجه أخيها الممصوص. تهمس وكأنها تكلّم نفسها: «يا حبيبي يا خوي، ربي يرحم حالك». يأتي البكاء لنبرة صوتها. تنتبه للمطفأة الممتلئة بأعقاب السجائر.

«الله كريم». يواسيها عبد الله، فتردّ ودمعها: «أكله المرض الخبيث، ليس كبيرًا، شباب؛ لم يبلغ الخمسين. لكن..». يعود البكاء يخنق صوتها.

«أرجوك لا تبكين». يخاطبها يوسف

«تحبين تقعدين؟».

«لا، سأعود إلى الغرفة، أقرأ له سورة ياسين بنيّة الشفاء».

وكما لو أنها تنبّهت لصوت المقرئ: «زين أنك شغّلت المسجل على القرآن».

«عوض طلبه».

«يا حبة عيني..». تقول عبارتها، وتلمّ بكاءها بغطاء رأسها. وتلتفت تُكلّم عوض: «ربي يلطف بحالك يا خوي». تسحب خطواتها خارجة وقد بلل الدمع وجنتيها، ويوسف خلفها.

يعود الهدوء للغرفة تمسّده تلاوة المقرئ.. يخاطب عبد الله «عوض» من خلف غيابه: «عساك تسمع التلاوة».

ينظر إليه. يتصوّره وقد فتح عينيه، ناظرًا إليه.

* * *

أذكر ذلك، قلت لأخي يوسف: «بكيت حين سمعت أبي يغني النهمة!». راح ينظر إليَّ فأضفت: «كم رددت أمي الحادثة عليَّ!».

كنا في شقتي في القاهرة حين قصصت على يوسف حكاية غناء أبي.. حين أحكي ليوسف تخرج كلماتي من قلبي بحبي له. ويُريّحني كيف يصغي إليَّ: «ربما كنتُ في الخامسة. وكان الفصل شتاءً، والشمس تفترش أرضية بيتنا في فريج المطبّة. وأبي جالس على بساطٍ يستند بظهره إلى الحائط، غارقًا في صمته. أمي طلبت منه: «سمّعنا نهمة».

«أنتَ محظوظ سمعت غناء أبي!». علّق يوسف.

«ربما فوجئ أبي بجملة أمي. راح ينظر إليها وشيء من الابتسام على وجهه، فأضافت: «أنتَ نهّام ولد نهّام، تغني على السفينة، وأنا وعوض نحب النهمة، ونحب صوتك!».

يوسف يفهمني حين أسكت وأنا أقصُّ عليه أي حكاية. لا يستعجلني. يُقدّر سكوتي، ويسكت معي وكأنه يترك لي وقتًا للتذكّر: «كنا ثلاثة: أمي وأبي وأنا، نجلس في الحوش نتشمّس. كان الفصل شتاءً. لامستني برودة نسمة عابرة. ظلّت عيناي مُعلّقتين بوجه أبي أنتظرُ منه الغناء. وتزيد أمي في حثّه قالت: «أسمعنا زهيرية ملا حمد العسعوسي».

«كأني أرى وجه أبي الحبيب.. اعتدَلَ في جلسته. أغمضَ عينيه، وبهدوء رفع كفّه اليمنى لتغطّي أذنه اليمنى، وحزينًا انطلق صوته القوي ببحّته:

أو يا مال، أو يا مال، أو يا مال،

شيءٌ ما تغيّر في هيئة أبي وصوته! جاء السؤال إليَّ: أي مالٍ يخاطب أبي؟ ولماذا يغمض عينيه؟ ولماذا يخرج صوته منقوعًا بالحزن؟ صدّقني يا خوي، كأني شربت صوت أبي الحزين في تلك الظهيرة».

«غناء السفن معظمه حزين. غناء عمل ينظّم حركة البحّارة، ويوحّد ويبث الحماسة في حركتهم..» ردَّ يوسف، وأكمل: «بحارة فقراء يحاصرهم الجوع والتعب! يعيشون على الخوف والأمل، مُعلّقين بين الماء والسماء. ينهش المجهول فكرهم.

بعيدون عن أهلهم، ولهذا يُعزّي الغناء أرواحهم. يأتي معجونًا بشوقهم ولهفتهم وخوفهم وضراعاتهم لله».

في أحيان كثيرة، أقف باهتمام أمام كلمات أخي يوسف؛ تعجبني فأبتسمُ له وأقول: «أحسنت بوحجاج!».

«أكمل لي ماذا حصل في تلك الظهيرة، حين غنى أبي النهمة».

«صمتَ كل شيء يا يوسف: أمي وأنا والبرد وجدران الحوش ودفء ضوء الشمس، ووحده صوت أبي الرخيم بلحن الياماال البحري الحزين ملأ روحي:

أو يا مال، أو يا مال، أو يا مال

لو بشتكي ما بقلبي على النجوم انزلت

سبع السماوات من جور الزمان انزلت

وصعود الجبال من بعد الرفاع انزلت

«تدري يوسف، دائمًا أظل أراقب أمي، عندما تأتي لزيارتنا الخالة عودة المهنا، وتُغنّي أحيانًا. أمي تحب الغناء على طريقتها، تصغي ونظرة عينيها الفرِحة. تتلذذ به، وتهتز روحها للحنه.. فجأة في تلك الظهيرة، وبينما صوت أبي يرتفع بنهمته، أبصرتُ تأثّرًا قد شمل وجه أمي، ولا أدري ماذا جرى لي وأنا طفل أستمعُ لغناء أبي الحزين، يملأ حوش بيتنا ويُدفّئ شمس الشتاء. أحيانًا أقول لنفسي: «تلك الظهيرة هي من صنعت مني مطربًا!».

«عجيب يا عوض، هذه أول مرة أسمع منك هذه الحكاية! أكيد الوالد أثّر فيك».

«سأخبرك بشيء: حين أكون في مكتبتي، أقرأ عن تقاليد الغناء في أي مكان، أنتبه إلى أن الغناء في كويت الثلاثينيات والأربعينيات كان حاضرًا بشكل يومي، ومنتشرًا على امتداد عيش أهل الكويت.. بعض الفرق الشعبية تطوف في السكيك بين البيوت، تغني في المناسبات الاجتماعية والدينية. فتسرع بعض الأسر تدخلهم إلى أحواش بيوتهم فيغنون بحضور أفراد الأسرة، الصغير والكبير. في حين شاطئ البحر مزروع بالسفن، فالبحر مصدر رزق الكويتيين الأهم، وأغاني العمل موجودة في كل زاوية من زوايا السفينة، وفي كل حبة رمل على الشاطئ، وفي رجع صدى كل موجة. منذ طلوع الفجر يحضر «القلاليف»، نجارو وصنّاع السفن والغناء مُخبَّأ تحت جلودهم. يؤدّون عملهم مخضّبًا بموسيقى مطارقهم وغنائهم، وفي أحيان كثيرة يتوقّفون عن العمل، يتركون أشغالهم، يلعب الغناء بأرواحهم، ويدور الطرب بينهم وترتفع الأكف بالتصفيق. في حين يبقى السمر ليلًا المتعة الأجمل لهم، فلا كهرباء ولا راديو ولا تليفزيون.. وحده السمر الحي والغناء البحري والبدوي يسلّي أرواحهم المعذّبة».

أذكر ابتسامة أخي يوسف في جلستنا تلك، وأكاد أسمع صوته وهو يقول: «عوض، لازم أسجّل لك هذا الكلام».

ضحكتُ معه وقلت: «لا تسجل شيئًا، أنتَ تعرف ذلك خيرًا مني، ولنعد إلى نهمة أبي في تلك الظهيرة».

«تلك الظهيرة ثابتة في ذاكرتك!».

«بل ثابتة في روحي، خصوصًا أن الوالد غنى زهيرية قريبة من قلبي، وأنت تعلم أنني أحبها وأرددها. دعني أخبرك شيئًا: في كل مرة أرفعُ صوتي بها، تأتي إليَّ هيئة أبي بحزن صوته، وأحاول أن أُرددها كما سمعتها منه، وتأثّر روحي بها. لكنها في تلك الظهيرة كانت مختلفة بطبقة قرار صوته القوي يرحمه الله:

الطير حوّام ما يسكن النازلة

يسكن بروس العلا ما يسكن النازلة

واطلب من اللي علينا رحمته نازلة

تفرّج هموم في وادي حشاي انزلت

«أذكر تمامًا أن أمي ردّت عليه بقولها: آمين يا رب العالمين. لكنه وقد غاب وتأثّره بغناء نهمته أكمل يشدو:

دمعي تحدّر على وجناي همالي
وأشوف دهري يابو عثمان هم مالي
يحق لي لاسكن الوديان همالي

«المهم يا يوسف، وأنا الطفل، ودون أن أدري سببًا أجرت نهمة أبي الدمعَ في عينيَّ. احترت ماذا أفعل؟ طفل صغير يستمع غناء

النهمة البحرية فيبكي. خجلت أن تلمح أمي دموعي. وظل صوت أبي بقراره الشجي والقوي يملأ حوش البيت، ويُطوّق قلبي:

لارابع الوحش وأدعى مثلهم وحشي
وآخذ على الراس من رمل الثرى واحشي
من عقب ذيك المعزة صرت أنا الوحشي
أصبحت مفجوع، هم أهلي وهم مالي

«في تلك الظهيرة، فجأة التفتت أمي إليَّ، وأسرعت تقول: «حبيبي عوض لماذا تبكي؟». أخذتني لحضنها تقبّلني، سكت أبي ونهض من مكانه جاء يأخذني لحضنه: «لماذا تبكي؟» ما عرفت كيف أردُّ عليه! بقيت أنظر إليه، فتبسّم ملتفتًا إلى أمي: «أكيد، عوض سيكون نهّامًا مطربًا، اسم الله عليه، صغير وتأثّر بالغناء وسالت دموعه!».

تلك الظهيرة يا يوسف لن تغيب عن بالي!

«الوالد الله يرحمه أول من توقع لكَ أن تكون نهامًا ومطربًا».

«صحيح، لكن الدرب كان صعبًا وأنت أدرى بذلك».

* * *

كأني أرى خيالاتهم تأتي إليَّ: أمي وأختي وأخي يوسف. يأتون إليَّ. يقفون بالقرب مني، لكن لا أدري لماذا لا يتكلّمون معي؟!

كلما ذكرت غناء أبي، أذكر لقاءً دافئًا مع يوسف، يومها دخل عليَّ متأثّرًا..

«تدري عوض، من أمس إلى اليوم لم أنم!».

«عسى ما شر؟».

«وصلتني كلمات أغنية أخذت قلبي!».

«من الذي كتبها؟»

كان يوسف متحمّسًا للقصيدة، استخرجَ ورقة من جيبه، وبصوتٍ متأثرٍ ردد الكلمات:

آه يا جاسي أنا فيك ابتليت
هذا حظي والطريق اللي مشيت
أنت مكّنت الصواب بمهجتي
بعدها يا زين عن عيني جفيت
عجب تسألني عن الذي جرى
هَمْ تقول لي عسى ما شر وش جرى؟
وأنت أول وأنت آخر منْ درى
هذا وأنت اللي على روحي جنيت
لا تجافيني ولا تنسى هواي
واذكر أيام الصبا وأنت معاي
كان ما يطري على بالك سواي
بس أشوفك ليش بالتالي نسيت

آه يا جاسي.. آه يا جاسي

آه يا جاسي.. أنا فيك ابتليت

أعجبتني الكلمات. لكن التأثر ظل ظاهرًا على وجه يوسف وهو ينظر إليَّ، فقلت: «هذه قصيدة جاهزة، وملحِّنة روحها، تصلح تكون سامرية لكن من كتب كلماتها؟».

«صديقنا الشاعر الغنائي بدر جاسر العياف، وسوف ألحّنها وأغنيها بنفسي».

«الله الله، أكيد راح تبدّع فيها!».

* * *

قبل قليل جاءت خالتي أم عوض لتجلس على السجادة في مقابلة عوض.. ساكتة ما زالت تقرأ بعض سور القرآن وتنفخ عليه، وقد لفَّ حزنٌ ثقيل وجهها.

هياج الريح المجنون ما زال يعلو في الخارج!

صوت المقرئ، وأنا، ودخان سيجارتي.

بهدوء يفتح يوسف الباب. يدخل وخلفه أخته. يقف ناظرًا إلى أمه وهي غائبة في قراءتها. يغشى الحزن وجه الأخت، ويتكوّر البكاء على وجه يوسف.

عوض ممدد أمامي. الله وحده يعلم ما يدور في رأسه.

اهتزَّ قلبي قبل لحظات، فكرة عابرة أخافتني، كأني أجلس هنا أقابله في نـزاع روحـه الأخير، وسكرات موته، وليس من شيءٍ حولي سوى تلاوة المقرئ الحزين! أسرعتُ أبعِدُ الفكرة، وسرحتُ أتأمل في كلام الله ليُهدّئ من روعي!

يا رب أمّن خوفنا يا رب!

* * *

مشهد ثالث

نشوة الطبل

الأحد، ١٦ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١١:٠٢ مساءً

الطبيب قال: «يمكن نقله إلى غرف العناية». أخافتني جملته ولم أُرِدْ مناقشته.

متى سيظهر صباح هذه الليلة؟

قبل قليل خرجت خالتي قائلة بدموعها: «لا اعتراض على أمر الله..».

كنت أنظر إليها، وقد تحوّلت لكتلة من الحزن، باحَتْ بتأثّرها: «ما يزال شابًّا. لكن..».

أنفاس عوض بالكاد تصعد وتنزل. أخاف، فأُركّز عينيّ عليه لأبصر حركة صدره بأنفاسه الضعيفة. أحيانًا تتلاقى نظراتنا، فأقرأ كلامًا في نظرته. أشعر به يودُّ لو يقول شيئًا لكنه لا يستطع. أخاطبه: «تكلم يا بوفهمي، قل ماذا تريد!». تعود أعيننا تتلاقى لبرهة، وسرعان ما تبتل عيناه بدمعها!

الله يشفيك يا ولد خالتي، قطّعت قلبي!

كأن صفير الريح والبرد اشتدَّا أكثر في الخارج!

عوض يفتح عينيه، فأمدُّ يدي أمسح على رأسه: «تكلّم يا أخوي! ريّح قلبي. قُل أي كلمة».

ودون أن يشعر تنزل دمعة عبد الله.

* * *

منذ أصابني المرض وأنا أسأل ربي وأستغفر.

لا رادّ لقضاء الله! لكن لماذا أنا؟

اختارني المرض دون غيري. أمسك بي وما كان ليتركني!

لديَّ الكثير مما أحلم به ولم أقدّمه.. أشعر أنني ما زلت في شبابي، لم أدرك شيخوختي!

في رحلة علاجي الأخيرة إلى لندن، تنهّدت أمام مرافقي الشاعر بدر بورسلي: «الحمد لله على كل حال؟».

ولأنه شعر بتوجُّعي ردَّ مُهوّنًا: «الكل يمرض يا بوفهمي..». وأضاف بنبرة رجائه: «الله يشفيك!».

لا أدري كيف خانني جسمي! حتى صوتي.. ما كنتُ أظن أنني سأغدو يومًا كما أنا الآن! مُمدَّد على الأرض والريح تدوي في أُذنيّ!

أحاول النهوض لكني أبقى مُلتصقًا في فراشي.. أكلّم عبد الله لكنه يبقى صامتًا.. تتلاقى عيناي مع عينيه، فيستمر بصمته دون أن أفهم نظرته.. أعيد كلامي عليه؛ أنادي: أمي وأختي وأم فهمي وأخي.. أنتظر أن يساعدني أيٌّ منهم، لكن لا أحد منهم يلبّيني!

عبد الله يبقى ناظرًا إليَّ وحزن وجهه. يحرّك شفتيه بكلام لا يصلني. يُضايقني ذلك. يعتصر الألم قلبي.

أبكي وحزني: كما تيتّمت أنا سيتيتّم أبنائي! يحرق السؤال قلبي: مَنْ لأسرتي وأبنائي من بعدي، أكبرهم فهمي طالب في المدرسة؟!

منذ صغري والبكاء معي. أحيانًا أبكي خُلسةً لو آلمني أحدٌ، وأبكي حرقةً بأسفي لو ألّمتُ أحدًا. فنفسي لا تطيق الإهانة، ولا أتحمّل الخطأ في حقي. البعض يصفني بأني سريع الغضب!

أختي أم بدر تردد: «حبيبي عوض، لا تكن عصبيًّا!». أبتسمُ لها، وأقول: «لستُ عصبيًّا». لكني أنسى كلامها في بعض المواقف، ولا أتذكّره إلا بعد فوات الأوان. ولحظتها أشعر بالأسف حيال الموقف، وسريعًا يمرُّ بي صوت أمي الغالية مُتبسّمة تقول: «عوض عصبي، نار كبرى، لكن قلبه طيب، ودمعته حاضرة، تخرّ في كل وقت!».

أبكاني في صباي صوت المقرئ الحاج محمود عبد الوهاب. عشقت صوته بتلاوته، جذبني شيءٌ شجي في نبرته الخاشعة. حين كنت أسمع تلاوة القرآن منه، أشعر به يرتّل كل حرف من أعماق روحه. فتخرج الكلمة مؤثرة تمسُّ قلبي. أنصتُ وسرعان ما تتندّى عيناي بدمعها.

كأني أسمع صوت المقرئ الحاج محمود من حولي. المسجّلة في الروشنة، وكذلك صاحبي يقف هناك بدشداشته النظيفة ناظرًا صوب فراشي.. لأول مرة أشعر به وكأنه مُنكسر.

يتحاشى النظر إليَّ! صاحَبَني منذ ولادتي، وها هو يأتي الليلة يشهد على لحظات مرضي بتعبي.

لا أدري لماذا تأتي ذكريات عمري الليلة لامعة تمرّ أمامي!

أذكر أنني طلبت من عبد الله أن يدير شريط «الكاسيت» بتسجيل المقرئ الحاج محمود. لكن مَنْ نادى صاحبي وجاء به؟!

لا أدري إن كان عبد الله يراه واقفًا قرب الروشنة؟

أتمنى لو يردّ عبد الله عليَّ.. يجلس قرب رأسي. يتحدّث معي بما لا أسمع. أسأله: لماذا لا تردّ؟ لا يصل إليّ ردّ، ووحده صوت المقرئ يُذكّرني بالمسجد..

* * *

أذكرُ تلك الليلة، جلستُ أراقب أمي وهي تضع الحنة في يد أختي طيبة ثم تلفّ عليها خرقة، وتقول لها: «غدًا صباح العيد افتحي الخرقة». تبقى ساكتة فتضيف أمي: «ستطبع الحنة الحلوة على راحة يدك وأصابعك». ولأني كنت بقربهما اقتربت مني أختي قائلة: «غدًا يوم عيد، عليكَ أن تستيقظ باكرًا وتذهب مع أبي وإخوتي للصلاة». بقيت أنصتُ إليها، فاحتضنتني إلى قلبها وقالت: «بكرة تجمّع العيدية». ولحظتها اهتزّ شيءٌ من فرح في قلبي.

كنتُ في الخامسة، وكانت أمي قد ألبستني دشداشة العيد الجديدة، وأمسكتْ بالمرش، ترشُّ في راحة يديّ الصغيرتين

بعض قطرات ماء الورد. مررَتْ أصبعها خلف أذني بعطر دهن العود، وبخّرتنا أنا وأبي وإخوتي من أبي: محمد، ودوخي، وخليفة، وعبد اللطيف.. أبي تزوّج امرأة ورُزق منها أربعة أولاد وثلاث بنات، لكن زوجته تمرّضت وخلال أقل من شهر صعدت روحها إلى بارئها، تاركة صغارها أيتامًا.. بعد ذلك تزوّج أبي أمي فصار أبناؤه في حضنها وعين رعايتها.

أذكر صباح ذاك العيد ولا أنساه.. كان العيد الأخير الذي رأيت أبي فيه.. صباحًا باكرًا أخذنا معه أنا وإخوتي لصلاة العيد. كان المسجد ممتلئًا بالمصلّين، وكلّهم يلبسون ملابس نظيفة أو جديدة. لم يكن باستطاعة جميع الكويتيين شراء ملابس جديدة. لكن أبي كان يحرص على شراء ملابس جديدة لنا في العيد.. رائحة البخور كانت تعطّر جوانب المسجد.. جلستُ بين أبي وأخي عبد اللطيف، وسرعان ما لفتني لحن التكبير: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.. دون استئذان تسرّب اللحن إلى روحي، تنقّل بين ضلوعي، فهزّني مُرتفعًا بين المصلّين. شعرتُ كأن الجدران والشبابيك وأعمدة المسجد وعوارض السقف والمنبر ورائحة البخور، الجميع راح يردد بلحنٍ واحد: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا. التفتُّ نحو أبي فوجدته منشغلًا بالتكبير،

وحين نظرتُ إلى أخي عبد اللطيف، حرَّك شفتيه يحثّني: «كبّر، كبّر». تمتمت بالتكبير، وقد غشيني اللحن، وهو يتماوج في أنحاء المسجد: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

هادئًا اندسَّ صوتي يردد مع الأصوات. تبسّم أبي لي، ومسح فوق رأسي: «الله يحفظك». دبيبٌ ما مسَّ جسمي. تذكّرت دراستي الأولى عند ملا بلال وملا زكريا، ولا إراديًّا، رحت أحرّك جذعي الأعلى إلى الأمام والخلف، وقد ارتفع صوتي بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. وأتشرّب بلحن التكبير الذي يهزُّ أرجاء المسجد، أغمضت عينيّ ورحت أرتفع معه.

حين رجع العيد في السنة التالية، أرسلتنا أمي بخاطر مكسور لصلاة العيد في المسجد، أنا وإخوتي، قالت وغصّةٌ تمسك بنبرتها: «لا تقطعوا عادة المرحوم، روحوا صلاة العيد».

ما إن خرجنا من باب بيتنا حتى انحشرت صخرة بكاء ببلعومي. أمسك أخي عبد اللطيف بيدي، وسلكنا طريقنا إلى المسجد. شعرتُ بالفريج والبرايح والبيوت والهواء والجيران والسماء، الجميع فرِح يستقبل العيد، إلا روحي ظلت حزينة، وكلمة أيتام.. كل رجال الفريج يأخذون أولادهم إلى المسجد والفرح يمشي معهم. وحدي مشيت وحيدًا بحزنٍ يملأ قلبي، وبكاء يمسك ببلعومي. حين دخلنا المسجد، وما إن سمعتُ لحن

التكبير، حتى ركضتْ إليَّ صورة أبي وجلسته.. جلسنا في المكان نفسه الذي جلسنا فيه السنة الماضية. لكن أبي كان غائبًا. لمسني أخي عبد اللطيف: «كبّر، كبّر». هززت له رأسي لكني لم أستطع. سدَّت صخرة البكاء بلعومي، ووحده لحن التكبير المدوّي بين جنبات المسجد راح يتردد بصوت أبي الغائب يستحضر فرحًا بعيدًا، وسرعان ما رأيت خيال أبي يأتي ليجلس بقربي، فملأت الدموع عينيّ.. لسع السؤال صدري: لماذا غاب والدي؟

أمي قالت: «الله يحبه، أخذه إليه». مرة سألت أختي والخوف بين كلماتي: «لماذا أحب الله أبي وأخذه منا؟!». ظلت تنظر إليَّ ولم تُجبْني. التمَّ حزنٌ غريب على وجهها. لمحتُ الدمع يبلل عينيها، وببكائها حذّرتني: «عوض حبيبي، لا تسمعك أمي، ولا تقل هذا السؤال لأحد!». لا أدري ما الذي لاح في نظرة أختي. لكن، منذ تلك اللحظة صرتُ أختلس النظر في عيون الناس وكأني أقرأ شيئًا فيها.

أم إخوتي تمرّضت وخلال شهر ماتت، وأبي تبعها بعد سنوات، مات دون سبب. وكم أرعبني السؤال: هل ستموت أمي أيضًا؟ طفل أخافني سر الموت حين أخذ أبي فجأة. حينها بكت أمي بمرارة حرقة قلبها. وشاركتها خالاتي وعمّاتي وجميع قريباتنا ونساء الفريج، صبغ الدمع واللون الأسود ونشيج البكاء حوش بيتنا وجدران غرفه. لكنْ، لم يهتم الموت لبُكاء النساء، ولا سمع نداءاتهنّ وأبقى أبي لديه ولم يعده إلينا!

بموت أبي سكنني خوف أعمى، عشش في قلبي؛ الموت يختفي في اللحظة القادمة، وقد يخطف أي إنسان دون سابق إنذار! لا أحد يستطيع الوقوف في وجهه، ولا رادَّ لقضاء الله. ولا أدري كيف تسرَّب الهاجس لروحي لحظة أمسك بي المرض!

تعوّدت؛ نظرة صاحبي تُدخِل الاطمئنان لنفسي. أتمنى لو تلتقي نظراتنا.

لا أدري لماذا أشعر به حزينًا، وكأنّ شيئًا ما تغيّر فيه؟!

* * *

أذكر ذلك، مرة سألت صديقي عازف الكمان والمُلحّن نجيب رزق الله: «تدري لماذا أكون حزينًا حين أُغنّي صوت السهارى؟». ظل ينظر إليَّ من خلف نظارته، يحاول تخمين السبب وراء سؤالي. كنا نجلس وحدنا في ديوانية بيتي. تناولت العود أُدندن وخيال أبي بغيابه يملأ رأسي، يحرّكه من جهة لأخرى وكأني أنفض عني شيئًا من ألمي:

صوت السهارى يوم مّرو عليَّ... عصرية العيد
ابطى ركابه وراح يسأل عليَّ... عصرية العيد

ساعة ما شفته أنا... بالي انشغل وياه
اقضيت ليلي بهنا... وأصبحت أعد خطاه

يالّلي بقيت بعيد... اليوم ذا يوم عيد
عيدك وعيدي أنا

توقّفت عن الغناء، فساد هدوء بيننا، قبل أن يقول نجيب: «صوتك بالقرار العريض يشدو باللحن بتأثّر روحك!».

راح ينظر إليَّ قبل أن يُكمل: «القرار المبحوح، يقول آهة حزنٍ تسكن قلبك، شيء يخصّك!».

وتكرر ما يشبه ذلك؛ حين كُنت أحتضن العود أُدندن الأغنية في غرفتي، وفجأة انتبهتُ لوجود أختي أم بدر فرحّبت بها: «هلا بالغالية، هلا بأم بدر». لكني لمحتُ حزنًا يغطّي وجهها الحبيب، لمعت دمعة في زاوية عينها، فأيقنت أنها كانت تشعر بحزني في أثناء الغناء، ولحظتها قلت لها: «هذه الأغنية، تذكّرني بغياب أبي رحمة الله عليه».

«عوض الله يخلّيك..» قالت وغصّت بكلماتها باكية!

حين خطف الموت أبي لم يفكّر بنا؛ تركَنا أيتامًا دون معيل، أوجب عليَّ وإخوتي البحث عن عمل كي نعيل أنفسنا وأهلنا.. ماذا باستطاعة طفلٍ أن يفعل ليعيل أسرة؟ حينها كنتُ طفلًا، ولم أكن أستطيع القيام بأعمال الرجال.. والدي عمِلَ نهامًا ومطربًا على السفينة، لكني لم أكن قد تعلّمت أصول وأسرار الغناء وقتذاك.

كنتُ طفلًا لا وعي لديَّ لحظة اتخذتُ قراري: سأكون نهّامًا مطربًا مثل أبي كي أعيل أسرتي. ولحظتها صار تعلّم الغناء بالنسبة إليَّ سبيلًا لعيش الحياة، وسدّ حاجة أسرتي. وحينها قلت: سأتعلّم النهمة والغناء، وأبعد عن الموت.

أريد العيش، وأتمنى ألا يهجم الموت عليَّ، يأخذني إليه مثلما أخذ والدي!

رافقت والدي في عيدٍ واحد.. أيام العيد يتغيّر كل شيء.. في كويت المجتمع البسيط، كويت المجتمع الصغير، كويت ما قبل النفط. كانت فرحة العيد تنزل من السماء كماء المطر. تبلل الجميع، الغني والفقير! الأطفال والكبار، الرجال والنساء، فيلوّن البِشْرُ الوجوه. الجميع يلبس ملابس نظيفة أو جديدة. الجميع يجد طعامًا لذيذًا متاحًا له.. في كويت الثلاثينيات والأربعينيات، كانت بعض الأسر مستورة تعيش كفاف يومها. لم يكن الطعام متوفرًا للجميع، لذا فإن بعض الأسر الغنية ولكي تنشر فرحة العيد بين الناس، فإنها تطبخ أطيب الأكلات وتجعلها مُتاحة للمحتاجين.. العيد عيد الفقراء قبل الأغنياء. الفرح شحيح على الناس، وهم يتلقّفونه أيام العيد.. بفرح يُعايد الأهل بعضُهم بعضًا، مثلما يُعايدون جيرانهم.. الأطفال الصغار يركضون في الفريج نحو الكبار، حتى لو كانوا لا يعرفونهم، يسلّمون عليهم:

«عيدك مبارك!» تلهج ألسنتهم بالمباركة، وتتعلّق عيونهم وخفق قلوبهم بمن سيعطيهم العيدية. فرح الأطفال وسعادتهم الغامرة، وهدية عيدهم الأجمل.. عبارة» «عيدك مبارك» تملأ البيوت والفرجان والساحات وتلوّن الوجوه بالسعد. تنتشر في الهواء، تلتصق الجدران طوال أيام العيد. ريثما يلملم العيد زيارته العابرة ويرحل!

* * *

ذكريات عمري تلمع أمامي الليلة كأوضح ما يكون!

يُؤلمني دويّ الريح في أذني!

كأن صاحبي جاء ليحرس تلاوة القرآن. عوّدني أن يحضر لسبب..

أتمنّى لو يساعدني الليلة، يدفع عني دوي الريح، لكنه غائبٌ بحضوره!

في مواقف كثيرة كلّمتني نظراته.

* * *

لا يكاد الوقت يمرّ! صفير الريح المخيف يعربد في الخارج، والبرد.

وحدي أقابل «عوض»، بأنفاسه الضعيفة، وصوت المقرئ يؤثث المكان.

ما إن رش المغرب رماد الظلمة على حوش البيت، حتى انتبهت ليوسف ينتحب بصمت يهزّ جسمه. نظرت إليه فدفع يقول: «أكره الليل وأخافه، وأنا خائف على عوض. لم أره مُتعبًا كما الليلة!».

يا رب لطفك الرحيم بعبدك الفقير.. يا رب!

أنظر إلى عوض، بالكاد يميل برأسه ونظرته. أشعر أنه يريد أن يقول شيئًا. أقرأ كلامًا على شفتيه، لكنه ما عاد يستطيع النطق.

أطفأ عبد الله سيجارته، وقد تحركت بقلبه هواجس ذكرياته: حين عاد عوض من رحلة علاجه الأخيرة

من لندن قبل نحو ثلاثة أسابيع، كان مُنهكًا، وقد عضّه المرض وأهرمه.

حين وصلنا إلى البيت قال لأمه وشيء من بريق فرح بنظرته: «الكويت كلها جاءت لاستقبالي».

«تستأهل يا وليدي، الجميع يحبّك».

«يجب أن أردّ هذا الحب بالغناء. سأبحث عن كلمات جديدة، وأقدّم ألحانًا جديدة».

«عسى، شدَّ حيلك».

«الحيل مشدود، لكن..».

كم حاولت معه، وكم ذكّرته: «لا تفكّر بالسوء!».

منذ بدَأ مرضه، قبل سنتين أو ثلاث، مخاوف الوساوس لا تفارق رأسه! هو لا يشكو، لكني أقرأ نظراته، فيمتد خيط من التفاهم بيننا، وأردد عليه: «تأمل خيرًا!».

اشتدّ عليه المرض.. منذ ظهر اليوم ما عاد يتكلم، انحبس الكلام في قلبه، فما عدنا نفهم ما يتفوّه به. ليس لي سوى النظر إليه. سأولّع سيجارة جديدة.

* * *

لا أدري متى لازمتني تلك العادة، صرتُ أستيقظ صباح العيد وشيءٌ مؤلمٌ من فقد أبي يلازمني. أتمنى لو أبقى وحدي. ويظل السؤال يحوم فوق رأسي: لماذا توقّف العيد عن رشّ ماء الفرح على قلبي؟! أحيانًا تَرِدُ الإجابة في خاطري: العيد فرحة الصغار! لذا منذ تزوّجت ورزقني الله أبنائي، حرَصتُ على شراء أفضل الملابس الجديدة لهم في العيد. وعوّدتهم أن أضع العيدية في أياديهم صباح كل يوم من أيام العيد. أرى الفرح في عيونهم فتفرح روحي.

أذكر ذلك؛ كنا أنا وإخوتي وأختي لا نعرف كيف ننام ليلة العيد! شوق غريب يهزّ قلوبنا. مرارًا نستخرج ملابسنا الجديدة وننظر إليها بفرح وشوق.. ننتظر لقاء صباح العيد.. معايدة أبي الحبيب وأمي وجدّتي، لبس الملابس الجديدة، صلاة العيد

مع أهل الفريج، ريوق العيد اللذيذ: شعرية البلاليط والبيض، وخبز التنور الحار، والحليب المهيّل! والأجمل العيدية ولعب الألعاب وركوب الحمير الممتع، وحضور أغانٍ ورقص «العرضة».

أبي أخذني للعرضة مع إخوتي.

في عيد أبي الأخير بيننا، سألني: «تروح معنا إلى العرضة؟».

كنتُ جالسًا فأسرعتُ أنهض وقد هزّني فرحٌ مباغت: «نعم أروح».

أذكر بيت طفولتي في فريج المطبّة. خرجنا معًا، سار أبي أمامنا، وسرنا خلفه أنا وإخوتي. نرتدي ملابس جديدة.

أخبرنا أبي: «نذهب إلى الصفاة». لم تكن ساحة الصفاة قريبة من بيتنا. لكن في ذلك الوقت لم تكن السيارة قد وصلت إلى أسر الكويت.. كنا نمشي، ومعنا يمشي الكثير من الرجال والأولاد. قابل أبي أحد أصدقائه فسلّم عليه وقبّله، وأسرعنا أنا وإخوتي نعايد الرجل: «عيدك مبارك»، فمدَّ يده لجيبه ونقّدنا العيدية، مثلما سلّم أبي عيدية لأبنائه..

ما هذا؟ كأن أبي قد حضر! يقف بجانب صاحبي..

سار أبي، في ذلك الصباح، مع صديقه وسرنا خلفهما. على البعد أبصرتُ علمًا كبيرًا أحمر يرفرف عاليًا وسط الساحة الترابية الكبيرة، أمام مبنى عرفت لاحقًا أنه «مديرية الأمن

العام». رجال كُثر كانوا هناك. تمنّيت لو نُسرِع بخطواتنا لنصل. وما إن اقتربنا حتى رأيت مجموعة من الرجال بدشاديشهم البيضاء يقفون في دائرة وهم يحملون الطبول والدفوف. سلّم أبي عليهم: «عيدكم مبارك..»، راح يصافحهم، وارتفع الرد بأكثر من صوت: «أيامك سعيدة..».

التفتَ أبي يخاطب أخي: «أمسِك بعوض، وابقيا على القرب».

كأني بوجه أبي حزينًا! لكني أسمعه يُكلّمني: «يا ولدي..».

تفرح روحي لسؤاله. أسرع أردُّ عليه: «نعم يا أبي؟». يبقى ناظرًا إليَّ وحزن وجهه!

في ذلك اليوم، شعرتُ أن كل شيء كان عيدًا. بدا الرجال منشغلين بتسخين جلد الدفوف والطبول أمام لهب النار، في حين انشغل آخرون بالسيوف والبنادق.. فجأة انتبهتُ إلى أن وفود الناس قد زادت، وأن التجمع بدأ يكبر، وأن الساحة اتسعت حتى ما عدتُ أدري أين صار أبي.. تجمع الكثير الكثير من الرجال، وجميعهم كان يلبس الدشاديش البيضاء. في حين تزنَّر الراقصون بأحزمة السلاح، حاملين بنادقهم وسيوفهم.. خُيّل إليَّ أن أهل الكويت كلّهم جاؤوا للمشاركة في رقصة عرضة العيد. شيئًا فشيئًا انبعث صوت الدفوف، ومعهم صوت الطبل.. رجل ضعيف وطويل حافي القدمين رفع طبلًا مستديرًا قرب رأسه وأذنه وراح

يضرب بعصاه بقوة عليه، والطبل يغرد فرحًا ويرقص بين يديه. استوقفتني نشوة جسمه برقصه، وصوت رنين الطبل في يده وكيف أن رنته تحرّك وتقود الرجال بنغمته القوية الثابتة، في حين يكاد يطير من مكانه بدشداشته البيضاء كلما قفز ليضرب على الطبل. انتبهت أن صوت ضربات الطبل المترددة برتمها كانت هي الأعلى، راحت تقود لحن الدفوف، وتضبط إيقاع حركة الرجال بأقدامهم الحافية على تراب الساحة وحركة أجسامهم، وغنائهم ورقصهم في مركز الدائرة. سرعان ما استقرت نغمة اللحن في رأسي، ورحتُ أتحرك معها صعودًا ونزولًا. شعرتُ أنني أرقص خفيفًا مع الرجال.. وقد ارتفعت أصواتهم متداخلة بلحن يتحكم بحركتهم ولعبهم بسيوفهم وبنادقهم. نار حماسةٍ اشتعلت بينهم، وتحت دشاديشهم البيضاء، وحركة أرجلهم في رمال الساحة. وسرعان ما ملأ اللحن الأرض والفضاء، وشعرتُ كأن سماء العيد تنزل إلينا لتردد الغناء مع راقصي العرضة:

يا دار من دونك نرد المعتدين
واللي يجينا بالخطر نلعن ثواه
هذي عوايدنا على طول السنين
حريبنا بالليل نومه ما هناه

لا أدري كم مرَّ عليَّ وأنا أتمايل قرب أخي عبد اللطيف وإخوتي ولحن العرضة يُرقّص أرواحنا، لكن شيئًا دبَّ بين الحضور،

وارتفعت الأصوات: «الشيخ أحمد الجابر، الأمير، الأمير..». جاءت إلى الساحة سيارة سوداء، وحولها يركض الكثير من الفداوية، وما إن توقّفت حتى ترجّل الأمير، بمهابته وابتسام وجهه وثبات خطوته، مُلتفًّا بعباءته.. قلت لنفسي: أمير الكويت، الشيخ أحمد الجابر يحضر العرضة! وحين رأيت الشيوخ يتمايلون راقصين بسيوفهم، دار ببالي الطبل والغناء والعرضة تمسّ روح الجميع؛ الأمير وشعبه!

كنت طفلًا. أشياء كثيرة تحركت في صدري، لكني لا أزال أذكر كيف بقيت أتمايل يُحرّكني اللحن الراقص بالرتم المتكرر.. امتلأت الساحة بالراقصين، شبابًا ورجالًا، وارتفعت أصوات الجميع تردد كلمات الغناء. صار صعبًا عليَّ وأنا الطفل أن أشاهد كل شيء. سمعتُ أحد الرجال يقول لجاره: «انظر، الشيخ عبد الله الجابر..». فيردّ عليه الآخر: «الشاب هو الشيخ جابر ابن الشيخ أحمد..»

فضاء، وعلم، وإيقاع، وغناء، وحركة ورقص رجال لا يهدأ ببنادقهم وسيوفهم، وأقدام حافية، وساحة ترابية واسعة.. الكويت وأميرها وأهلها حضروا رقصة العرضة ومعهم غنّت سماء العيد.

أين اختفى أبي؟ ناداني وغادر دون أن أعرف ما يريد!

وحده صاحبي يتابع التلاوة!

* * *

أسمع أحدًا يطرق الباب: «تفضَّل». أنهض فيقابلني وجه أم فهمي.

«شلون عوض؟». سألتني بجزع صوتها وخوفها.

«كما ترين».

«رائحة الغرفة سجائر». شكت ناظرة إليَّ.

ابتسمت لها: «عوض يحب التدخين».

«السيجارة دمّرته!». ردّت بضيقها.

أطفأت سيجارتي. ملتُ أنظر إلى عوض، لا يظهر منه إلا رأسه، وقد لفَّفَته بالغطاء خوفًا عليه من البرد.

«إن شاء الله صباح الغد ننقله إلى المستشفى». كلّمتني أم فهمي.

«بإذن الله».

انتبهتُ لعواء الريح المجنونة في الخارج.

خشيت أن أقول لأم فهمي: «الله يستر من هذه الريح!».

* * *

telegram
@yasmeenbook
مكتبة ياسمين

مشهد رابع

أصوات النهّامة

الأحد، ١٦ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١١:١٨ مساءً

«لماذا لا ننقله إلى المستشفى؟». سألني فهمي مُوزِّعًا نظراته بين أبيه وبيني. آلمني أن أخبره ما قاله الطبيب، فقلت: «ليس في المستشفى الآن سوى أطبّاء الخفر».

أنظر إليه، شاب في بداية حياته، يتألم بخوفه لاشتداد المرض على والده. ينكسر قلبي له. أخاطبه: «فهمي يا ولدي، نحن مسلمون، نؤمن بأن كل شيء بيد الله».

تمرّ بيننا لحظة هدوء، وسط قراءة المقرئ ومن خلفها صفير الريح في الخارج.

«كأن أبي يفتح عينيه». أشار فهمي.

«نعم، هو يفتح عينيه بين وقت وآخر، ينظر إلينا لكنه لا يقول شيئًا».

«ما تكلم؟».

«لا». لمحت دمعة في عينَيْ فهمي، فهوّنتُ عليه: «أنت ولده الكبير، ويجب أن تتماسك أمام جدتك وأمك وعمّتك وإخوتك».

نظر إليَّ ولسان حاله يقول: عساني أقدر! استدار خارجًا بخوفه. ولحظتها انفتح الباب، ودخلت خالتي أم عوض ويوسف، في حين ظل عوض مُمدَّدًا بفراشه على الأرض، وشيء من نظرته المُطفأة معلّق بالسقف.. فكّرت أخرج قليلًا إلى الحوش أُدخّن سيجارة.

* * *

ليتني أستطيع الكلام.. كأني أرى أشخاصًا يأتون إلى الغرفة ويخرجون. لكن لا لساني ولا جسمي يطاوعانِني. منذ أمس أهمُّ بالنهوض، أرفع جسمي، فيأبى جسمي، يظل مُمددًا دون حَراك.. هو المرض قد استقوى عليَّ ففصل عني جسمي، ما عدت أقوى على تحريكه. أتمنى لو أنهض.. ما تصوّرت نفسي أضعف فينحبس صوتي، وأعجز عن تحريك لساني بالكلام! طوال عمري ظل صوتي هادئًا.

أم كلثوم قالت لي: «أنت تتكلم مثلما تغنّي!».

طفلًا قليل الحركة كنتُ.. درست في الكتاتيب عند الملا بلال وتاليًا ملا زكريا.. حفظنا بعض سور القرآن، وحروف العربية وكتابة الكلمات، وشيئًا من الحساب، قبل أن أنتقل لأدرس في مدرسة «النجاح».. هناك عرفت أن الكتاب سرُّ المعرفة.. أذكر وجه ذلك الأستاذ وصوته: «إذا أردتم معرفة الحياة فعليكم بالقراءة». كنت أنظر إليه وكلي يستمع: «الكتب تحوي وتقول ما يدور في عقول العلماء!».

في طفولتي في مدرسة النجاح عشقت القراءة والكتب. لكن، حين مات أبي صار يجب علينا، نحن أولاد الأسرة، أن نكدّ ونعمل لسد حاجة الأسرة. كنا صغارًا، لكن العوز ولقمة العيش لا يفرقان بين صغير وكبير! أمي تقول: «الروبية عزيزة واللقمة مرّة!».

في منتصف الثلاثينيات، لم يكن أمام الكويتيين إلا البحر. حينها كنا نعيش وجيراننا في الفريج على لقمة الكفاف، وبالكاد تؤمّن الأسر زاد يومها.

أذكر تلك الحادثة، حينما قَدِمَ «المجدّمي» إلى بيتنا، هو رئيس بحّارة السفينة جاء يستأذن أمي: «سنأخذ «عوض» معنا، تبّابًا على السفينة».

ربما كنت في التاسعة. يوم وقف الرجل قرب باب بيتنا، في حين غطّت أمي وجهها ببوشيتها، وقفت تحدّثه من داخل الدهريز وباب البيت بينهما. أوضح يخاطبها، وأنا أقفُ بقربه ناظرًا إليه: «عوض ولد طيب، ووالده عمل معنا نهّامًا على السفينة».

بامتنان ردّت أمي: «جزاكم الله خيرًا، وأرجو رعايته فهو يتيم وصغير».

«كوني مطمئنة».

بعد يومين عاد الرجل ورفع صوته يخاطب أمي بمكانها خلف الباب: «تعلمين أختي؛ الولد التبّاب لا يأخذ سلف مُقدّم مثل البحرية، لكن النوخذة أرسل معي مبلغًا كي أسلّمه لكِ».

وكما لو أن أمي توقعت ذلك خاطبته بنبرة ثابتة: «مشكور، سلّمه لعوض».

كنتُ أقف بقربه، فمدَّ يده إلى جيبه، واستخرج مبلغًا سلّمني إياه.

حين انصرف، ودخلتُ البيت، لمحتُ ما يشبه الرضا في عينَيْ أمي وعلى وجهها. مددت يدي أسلّمها المبلغ. بقيت ساكتًا وقد حطَّ عليَّ خوفٌ ثقيل لا أعرف سببه.

البحّار يأخذ السلف قبل سفره ليساعد به أسرته في أثناء غيابه. سأترك بيتنا وأمي وأختي وأخي وأذهب لأعمل في البحر؟ أي عمل ينتظرني وأنا الصغير؟ المجدّمي قال: سأعمل تبّابًا، أي إنني سأساعد البحارة وأُلبّي طلباتهم بأي شيء يحتاجون.

في تلك الليلة لم أستطع النوم. تناهَبْتني أحلام كثيرة.. باكرًا مشيت إلى شاطئ البحر. تحاشيت أن يراني أو يصحبني أي شخص. وجدتُ أن القلاليف بعدّة نجارتهم قد سبقوني إلى الشاطئ، وأنهم توزّعوا بين السفن، وارتفعت ضربات مطارقهم لتشكّل موسيقى أعمال الصباح. في حين اشتطّت حركة مراكب الصيد وأصوات الصيادين.. افترشت رمل الشاطئ الرطب. اختبأتُ في زاوية لا يراني أحدٌ فيها. تكوّمت على نفسي أقابل اتساع البحر.. أخافني امتدادٌ لا حدود له، وأخافني التقاء أزرق البحر بأزرق السماء. وأخافني ترك بيتنا وأمي وأختي وأخي الأصغر يوسف.. أشتغل تبّابًا، صبيًّا صغيرًا يلبي طلبات البحارة على سفينة غوص ستغيب عن الكويت أربعة أشهر. تذكّرت أطراف قصة سمعتها عن بحارٍ مات، وبأمر النوخذة، رمى البحّارة جثته إلى البحر. خفتُ أن أموت ويرمونني إلى أسماك البحر..

خفت وكرهت ركوب البحر، ورغمًا عني بللتني دموعي. لكن، ما كان ممكنًا أن أقول «لا» لأمي. ولا كان ممكنًا أن أكون خلافًا لأولاد الفريج! الجميع يدخل إلى البحر، وكلٌّ ينال حظه. أذكر حين عاد ولد جيراننا سلمان من السفر، كان تبّابًا، قال لي بفرح عينيه: «الحمد لله، إكراميات البحارة كانت جيدة..» وسألني «تعرف السحاتيت؟» هززت رأسي له: «لا».

راح ينظر إليَّ وابتسامة عينيه: «البحارة يفلقون المحار، لاستخراج اللؤلؤ، وبعد أن يرموا المحار.. نقوم أنا وتبّاب آخر، نجلس في مقابل كومة المحار، وننبش في أحشائها بغية العثور على لآلئ صغيرة جدًّا، سحاتيت، وأحيانًا نوفّق بالعثور على هذه اللآلئ..». كان يتكلم وكنت أستمع إليه: «جمّعت السحاتيت وقدمتها للنوخذة، وعطاني المقسوم!».

تذكّرت أبي، وأنه كان نهّامًا يغني على السفينة، أحسستُ بأن الغناء وحده سيعطف عليَّ وينقذني ويرحمني من أهوال البحر وموته. لكني أنا طفل ولا أعرف الغناء.

وحدي كنتُ أجلس على رمال الشاطئ، والموج يكاد يلامسني. عاد البكاء إليَّ، ولا أدري كيف رفعت رأسي، فوجدت وجه صاحبي يبرز من سطح البحر. ينظر إليَّ بنظرة حانية. أخذ يسبح مقتربًا من الشاطئ، وكان بين فينة وأخرى يتوقف عن السباحة، رافعًا رأسه فوق الماء ناظرًا صوبي بابتسام أراح

قلبي.. حينها هدأ خوف خاطري. تخيّلت أن صاحبي حضر ليقول لي: لا تخف، سأكون معك في البحر. مسَّ الرضا نفسي، وحين وقفت رافعًا رأسي كي أشكره، بدا سطح البحر فارغًا إلا من أمواج مسرعة تقصد الشاطئ، وقد زادت موسيقى نقرات القلاليف وعلت ضجّة الشاطئ بروّاده.

الليلة، جاء صاحبي إلى غرفتي ليقف على البعد، مُستمعًا لتلاوة القرآن. ربما عزَّ عليه أن يتركني وحدي بآلامي ومحنتي. لكن لماذا يتحاشى النظر إليَّ، مُعرِضًا عن مساعدتي بأي شيء؟!

لو تلتقي نظراتنا فستهدأ روحي.

والدي رمى كلمته عليَّ وتوارى مُختفيًا. سمعتها واضحة منه: «يا ولدي..». لكنه لم يُفصِح عما يُريد!

* * *

أذكرُ المساء الذي سبق دخولي إلى البحر، حين ارتفع صوت أذان المغرب، وبدأ الوقت يرش رماد الظلام على جدران بيوت الفريج ووجوه الناس، لحظتها اختنقت بعبرتي.. غدًا يوم «الدشّة»! غدًا البحارة يدخلون إلى موسم الغوص! غدًا أترك الكويت. غدًا أبدأ رحلتي الأولى مع البحر. ما مددت يدي للعشاء، ولا استطعت النظر إلى وجه أمي. اختبأت فوق السطح وبكيت بخوفي وحُرقة قلبي.

بعد العشاء جلست أمي وأختي جهّزتا صندوقًا صغيرًا ملفوفًا بحبال. وضعتا فيه دشداشة واحدة وإزارًا، وبعض قطع كعك «قرص العقيلي» و«الدرابيل».

كلّمتني أمي: «كنتُ أجهّز الصندوق لوالدك يرحمه الله. ما شاء الله، صرتَ رجلًا يا عوض!». بقيت أنظر إليها بصمتي وحبس بكائي. فكّرت بيني وبين نفسي: لا أريد أن أكونَ رجلًا، وأفضّلُ البقاء في البيت!

«دير بالك على نفسك..». نصحتني أختي. ترددتُ أسألها: كيف؟

ليلتها جافاني النوم، ولا أعرف متى سقطت بنومي، لكن أذان الفجر مسّني فنهضت خائفًا.. بعد الريوق بوّستني أمي وكذا أختي، ومشيًا قصدنا ساحل البحر.. صباح يوم الدشّة، الكثير من العوائل؛ رجال مسنون ونساء وفتيات وأطفال، الجميع يمشي قاصدًا سيف البحر. العوائل تحضر لتودّع أبناءها، قبل أن يغيّبهم البحر في رحلة غوص تمتد لأربعة أشهر. البحر؛ الداخل مفقود والخارج مولود. شاطئ البحر كان مزروعًا بالبشر والضجة ونظرات العيون الباكية. وقفتُ أتأمل الوجوه الحزينة. كنا وسط اللغط الدائر، حين جاء شاب سلّم على أمي: «صبّحك الله بالخير.. المجدّمي أرسلني لأخذ عوض».

فجأة اشتدّ ضغط يد أمي على معصمي، وكأنها ترفض أن تسلّمني للشاب. ظل الشاب ينظر إليها ممسكة بي، وأختي إلى جانبي. تمنّيتها لو تردّه، هاض الخوف بقلبي. شعرتُ بخفق

قلب أمي، ويدها تُحيط بمعصمي. خاطبت الشاب بنبرة دامعة: «عوض أمانة الله وأمانتكم!».

لحظتها انكسرت نبرة صوتها ببكائها، وشاركتها أختي، وأبلع أنا حصاة بكائي نزلت دموعي!

لا يمكنني أن أنسى كيف انتزعني الشاب من قرب أمي وأختي وأخي يوسف. شعرتُ أني أجرُّ بصعوبة رجليّ الثقيلتين وهما تغطسان في رمل الشاطئ، حاملًا صندوق سفري الصغير. تمنّيت لو أعود أسلّم على أمي، أشمّ رائحتها وأقبّلها. راح الشاب يسحبني خلفه وكأنه ينتزعني من روحي. وظل هذا المشهد الحزين يؤلم قلبي، ويمسك بنبرة صوتي كلما رددّت كلمات الياما:

آها آها آها آها

والله يا يبه جيت أنا القنطرة رأيتها تجري

قلت يا قنطرة ما مرّوا عليك أهلي

قالت بلا، مرّوا عليَّ طلعة الميزان والفجر

أرقوا خشبهم وخلوا دمعتي تجري

* * *

باكيًا خرج يوسف قبل قليل. أعاد عليَّ: «لم أرَ «عوض» غائبًا كما الليلة!». بقيت ساكتًا أنظر إليه، فأضاف: «لو حدث أن غاب عوض، لا قدّر الله.. سوف..» خنقته عبرته وانتحب باكيًا.

كلما نظرت ساعتي وجدتها بالكاد تتزحزح، يلوحُ الوقت متوقّفًا!

أشعر بالبرد. كأن المدفأة تُدَفِّئ نفسها! لكن.. مسكين عوض لا أدري إن كان يشعر بالبرد.

الرياح الملعونة تعوي في الخارج.

الطبيب قال.. مع أول خيط صباح سأتصل بالإسعاف، وأنقُله إلى غرفة العناية المركّزة، علّهم يساعدونه.

* * *

دويّ الريح في أذني. أتمنى لو أستطيع الحديث مع عبد الله..

طفلٌ يسكن الخوف والحزن ضلوعي سافرت مع النوخذة عبد الرحمن بن عثمان. عمِلت تبّابًا؛ أتنقّل بين البحارة أُلبّي طلباتهم.. في أول يوم لسفرنا، وما إن صارت السفينة في عرض البحر، حتى ناداني النوخذة، وكان جالسًا إلى جانب «السكّوني» خلف الدفة. قال لي: «يا وليدي يا عوض والدك يرحمه الله ركب معي نهّامًا، وكان إنسان طيبًا؛ ونهّامًا مُتمكّنًا، لذا أردت مساعدة أهلك، طلبتك لتعمل معنا».

«مشكور». رددت عليه، فأكمل: «إن شاء الله حين تكبر تكون نهّامًا مثل أبيك». أفرحتني جملته، فقلت: «إن شاء الله».

الجميع رحَّب بي على السفينة مردّدًا: «يا هلا ولد المرحوم.. ولد النهّام».

كلام النوخذة والبحارة أشعرني بقيمة أبي، وزاد من رغبتي في أن أكون نهّامًا.

منذ اليوم الأول جلست أتناول الأكل مع طبّاخ السفينة بقرب مكان الطبخ «السريدان». وحين انتهينا من الأكل نظر في عينيَّ وخاطبني: «والدك كان صديقي. وكان نهّامًا يطرب البحارة، حتى الخشب يهتزّ ويرقص معهم حين يغنون ويصفّقون!». رحت أنظر إليه وقد دخلت عبارته قلبي: «الخشب يهتزّ ويرقص». قال لي بصوته الثخين: «ستساعدني ونأكل معًا، وتؤدي عملًا مهمًا..».

حبست أنفاسي أنظر في عينيه؛ أي عمل سأؤدي؟ أشار إلى خزان ماء السفينة «التانكي»، وقال: «ستُلبي طلبات البحارة، تحمل الماء إليهم، لكن الأهم أن تكون حريصًا وتنتبه، فماء الشرب عزيز، وعلينا المحافظة عليه!».

تلك كانت مهمّتي الأولى في عملي في البحر. ظل الطبّاخ طوال رحلتنا، وفي كل يوم، حين ينتهي من الطبخ، يصرخ عليَّ بصوته العالي: «عوض، حط ماء على «الحيزة». أسرع راكضًا لكومة حبال بقرب السريدان، أغرف ماءً من البحر، وأبللها كي يضع قدور الطبخ الحارة عليها، ومن ثم أساعده على وضْع

الصينية الكبيرة ليضع الرز عليها ومن ثم السمك! قبل أن يتجمّع البحارة من حولها.

سرعان ما أدركت أن أمتع أوقاتي على السفينة هي لحظة أستمع لغناء نهام السفينة، وكيف تحرّك كلماته موزونة الرتم حركتهم وتتحكم بها! وكيف أنهم يعيشون على حلم العودة إلى الكويت. العمل المر في البعد، أربعة أشهر الصيف، تحت شمس حارقة، وماء بحر مالح يقشّر جلودهم، وغوص خطِر بين أسماك متوحشة.. الغواص يبدأ الغوص منذ الفجر، يتناول تمرةً واحدة وفنجانَ قهوة صغيرًا، ويستعد لبَدْء يومه الطويل. سألت الطبّاخ: «لماذا لا يأكلون أي شيء قبل الغوص؟». ضحك مني وقال: «يجب أن تبقى بطونهم خالية، كي يستطيعوا التنفّس بمساحات صدورهم، والبقاء أطول مدة ممكنة في قاع البحر».

الغوص على المحّار يأكل يومهم. كل غوّاص يغوص عشر تبّات، عشر مرات قبل أن يستريح قليلًا في ظل البوم، وربما رشف شربة ماء، ومن ثم يعاود الغوص.. الخوف والأمل يسكنان قلوب البحّارة. هناك في عرض البحر، بين أمواج متراكضة، وسماء حارقة.. تشرّبت طفولتي أصوات النهامة، ومعهم عشت غناء البحر، وعشت مراراته وقسوته!

سافرت تبّابًا مع النوخذة عبد الرحمن بن عثمان. وفي السنة الثانية سافرت مع خالي ماجد على بوم علي بن خميس.. كأي شاب في الكويت لا شيء يؤمّن قوته، ويردّ عوز عائلته سوى العمل

في البحر. سفر الغوص يختلف عن سفر التجارة.. سفر طويل بسفن شراعية تتقاذفها رياح المحيط العاتية وأمواجه المخيفة.. في أشهر الشتاء تُبحر في الظلمة ثمانية أشهُر إلى موانى الهند وإفريقيا.

منذ طفولتي وعيت أن أصحاب السفن وتجّار الديرة وشبابها يشتغلون بالتجارة في أشهر الشتاء الطويلة، ويعملون بالغوص في أشهر الصيف، أربعة أشهر من العمل اليومي المضني، من الفجر وحتى المغيب.. أربعة أشهر من الغوص في «الهيرات»، أماكن تجمّع المحّار، واقتلاع المحار من قاع البحر، ومن ثم الاجتماع على سطح السفينة لفلق المحار بحثًا عن لؤلؤة مُخبّأة هي الحلم وهي المُنى.

أربعة أشهر من العناء والتعب والخوف والشوق.. بقيت في كل رحلاتي البحرية مسكونًا بالعودة إلى الكويت، وكنتُ وجميع البحارة نحلم بإعلان يوم «القفّال»، يوم العودة حيث تتراقص أرواح البحارة بقرار عودتهم. العودة إلى الديرة، العودة إلى الأهل والأحباب. وكم يلذّني سماع المطربة الخالة عودة المهنا تخاطب البحر بلسان نساء الكويت، حين تطول غيبة البحارة فيه. يغيّبهم بقسوته يبتلعهم لأربعة أشهر وأكثر، فتعتب نسوة الكويت عليه، ويُذكّرنه بأن أربعة أشهر طويلة قد مرّت وها هو الشهر الخامس قد دخل.. تجتمع النسوة على شاطئ البحر وإحداهن تحمل سعفة مشتعلة كي تكوي البحر بها، عقابًا له على قسوته واستئثاره بأبنائهن. وما يلبثن أن يُرددن غناءهن، مُناديات باسم

عوائل النواخذة والبحارة، وكأنهن يُذكّرن البحر بأنهن يتفطّرن شوقًا لعودة أحباب قلوبهن.. أذكر أنني قلت للخالة عودة: «أحب سماعك ترددين أغنية: توب توب يا بحر».

نظرت إليَّ بحنان عينيها وطيبة قلبها، وفي جلستنا التالية، وعلى حين غفلة ارتفع صوتها القوي تغنّي في حين بنات فرقتها يرددن معها:

توب توب يا بحر.. توب توب يا بحر
أربعة والخامس دخل،
توب توب يا بحر
جيبهم.. خاطفين جيبهم
ما تخاف من الله يا بحر.. ما تخاف من الله يا بحر
يا اللومي.... هات بن رومي
يا القاز..... هات بوقماز
يا الحوت.... هات بن ياقوت
يا الدانة..... جري شملان من اذانه
يا البصري..... هات بورسلي
يا الكبريت... هات بن عفريت
يا الياموسة..... هاتِ فهد بن موسى

* * *

توقف المسجل. سكت صوت المقرئ.

تنبّه عبد الله.. سأنهض لأقلب الشريط على الوجه الثاني. عوض طلب التلاوة، وليس سواها يُدخِل الاطمئنان على قلبي، وربما كان يسمعها معي!

ينهض قاصدًا المسجّل. يستخرج شريط «الكاسيت» يقلبه على الوجه الآخر. يضغط الزر، فينبعث من جديد صوت المقرئ..

عبد الله واقفًا ينظر إلى عوض الممدد على الأرض.

الريحُ في الخارج تعوي بصفيرها، والوقت مريض يُشاركنا الصمت الهواجس!

دون وعيه صعدت به رائحة التدخين المُشوِّقة، فتفقّد علبة سجائره! في حين دخلت عليه أم بدر بهدوء، وعيناها تتفقّدان وجه أخيها.

* * *

جدّي كان نهّامًا، وكم رافق صوته رفع الشراع.. فتّحت عينيّ على أبي يدندن بالغناء، وأخي عبد اللطيف يعزف على العود. طَوال طفولتي كنت أمسك بثوب أمي، لا أكاد أفارقها كلما ذهبت إلى أيّ عرس أو مناسبة فرح. أخنس بقربها، أتمثّل غناء النساء وطربهن، وهنَّ يضربنَ على «الطيران»، فتهتزّ الدفوف

بين أياديهن. تحضر الفنانة الخالة «عودة المهنّا» رئيسة الفرقة ومحرك المجلس، بعفويتها وحزمها وحفظها لتراث الكويت الغنائي الشعبي. وحين يكون الفنان «عوّاد سالم» إلى جانبها يَلتئِمُ المجلس بالتمام، يُكمّل أحدهما الآخر.

هناك في بيوت الكويت، في مناطق «شـرق» و«جبلة» و«المرقاب»، وفي أحواش مُنكشفة على نجوم السماء، وبين أصوات وتصفيق النساء وغنائهنّ، ورقصهن وهنّ يتمايلنَ بخطوهنّ كأهدأ ما يكون، يلفحنَ بأثوابهنّ ورؤوسهنّ فتعم وتنتشر رائحة دهن «العود». المُدوِّخة. هناك وطوال طفولتي تشرّبت روحي غناء: «السامري»، والخمّاري، و«اللعبوني»، وبقيت حتى شبابي أسعى لأن أكون في كل مجلس تغني فيه خالتي عودة. تأنس روحي للحن غنائها، ومنها أتعلم لحن الأغاني التراثية ورتم أدائها. في حين كنت أمضّي صباحات أيامي في القراءة.. لم يكن الكتاب متوفّرًا للجميع، وكنتُ كلما زاد لديّ شيء من روبيات قصدت مكتبة «ابن رويح»، أقف مطوّلًا أمام الكتب، ويشملني السرور حين اختار كتابًا، وأستطيع شراءه ودفع ثمنه. أحمله فرِحًا على قلبي مردِدًا كلمات معلّمي: «الكُتب تقول ما يدور في عقول العلماء!».

كنتُ إذا ما فرغت من القراءة، أقصد شاطئ البحر. أتمشّى بين السفن والبحارة على السيف، أتلقّط غناءهم، وحيثما كان الغناء،

أجلس صامتًا أستمتع بنغمات «فن الصوت»؛ عزف عود تصاحبه ضربات «المرواس»، ويعلو برأسي شربكة تصفيق الشباب الحار، ولن أنسى جملة ذلك المسن. كان جالسًا في ظلال «البوم»، يتابع بطرب روحه غناء وتصفيق الشباب، يردد معهم الصوت، وحين انتبه لوجودي بقربه، قال لي: «خشب.. ترتفع كفوف الشباب يشربكون بالتصفيق». ابتسمت له، ولأنني لا أصفّق، أشار إليَّ بحماسته يحثّني: «كف، كف.. صفّق!».

تاليًا حين عملت بحّارًا على السفينة، وذهبت في رحلة التلحين مع أخي يوسف، أدركت قيمة التصفيق في الغناء الكويتي، وأنه مكوّن أساسي في غناء فن الصوت، وأنه يضيف رونقًا يميّز الغناء الكويتي والخليجي.

* * *

بقيت سنين طفولتي أنظر إلى العود وتساؤلٌ حلوٌ يعشش في صدري، كيف لهذه الآلة الحبيبة أن تصدر أنغامًا تكون رفيعة مُحلّقة أحيانًا، وغليظة حزينة في أحيانٍ أخرى؟ تغني وتُطرب للفرح، وتئن بالأسى؟ تغني بمفردها بمجرد العزف عليها، وتحمل صوت صاحبها تُطرّز نبرات صوته بالغناء! عشقت آلة العود.

يبدو بعيدًا ذلك اليوم.. أذكر الغرفة في بيتنا.. كنتُ ساهيًا أنظر إلى العود حيث تركه أخي عبد اللطيف وذهب لقضاء حاجته. دار ببالي: لماذا لا أعزف مثله؟ تبللتُ بفرحي بيني وبين نفسي إذ تصوّرتني أعزف عليه. بقيت في جلستي ونظراتي بخيالاتي تمسح العود بكلِّ أجزائه، وحين عاد عبد اللطيف وشعرَ أني مستغرقٌ في تأمل العود، تناوله وجاء جلس قبالتي: «تحب العود؟».

أومأت برأسي: «أكيد».

«تعلَّمْ أجـزاءه أولًا؛ هذه الملاوي، وهذه تُسمّى «بيت الملاوي»، وهذا «الوجه» أو «الصدر»، وهذه «الطاسة». وهذه الفتحات يُسمّونها «الوردات»، وهذه القطعة التي تمسك بالأوتار تُسمّى «المربط»».

شعرتُ وكأن قشعريرة عبرت فوق ظهري. أحسستُ أنني أقترب من عالم العود.. بقيتُ ساكتًا، ولحظتها دخل علينا أبي، رحمة الله عليه، ونحن بجلستنا، وحين عرف بأن عبد اللطيف يخبرني عن أجزاء العود، قال له: «علّمه، علّمه كيف يعزف».

لحظتها نظرت إلى أبي، وكأنه نطق بما في صدري وروحي. التمعت عيناي بفرحي، وتمنّيت لو أقبّله.

«صعب، هو صغير، العود كبير عليه». علّق عبد اللطيف.

«لا عليك، ضع العود بحضنه فتسعد روحه».

الله يرحمك يا أبي؛ أنتَ أول من حمل الغناء لصدري وأبكاني، وكما لو أنك تعلم بأنك سترحل قريبًا، وجّهت أخي عبد اللطيف كي يعلمني العزف.

ها هو أبي يعود لمكانه، يقف بجانب صاحبي. عاد يكلّمني: «يا ولدي سنلتقي..».

لم يتغيّر، هو هو كما صحبته لصلاة العيد في المسجد. لابسًا دشداشته البيضاء، وكاشفًا رأسه.

«أين نلتقي يا أبي؟». أعود أسأله. لكنه يبقى بحزن نظراته، وما يلبث أن يغيب عن عينيّ. فيبقى صاحبي واقفًا وحده غارقًا في صمته!

يظهر أبي. يرمي عليَّ جملة ويختفي.. أين يريد لنا أن نلتقي؟

لسنوات بقيت أجري خلف أخي عبد اللطيف، أتبعه حيثما ذهب. أطلب منه أن يعلّمني العزف. وكان يطردني أحيانًا: «ما زلت صغيرًا! أنت مستعجل!».

«هذه وصية الوالد». أردُّ عليه، فيشرق الرضا على وجهه وفي عينيه ويقول: «الله يرحمه».

نعم يا أخي كنتُ مُستعجلًا، ففي أول مرة أمسكت بالعود وقرّبته من صدري، ولحظة مسّت أصابعي الأوتار، شعرتُ كأن عروق قلبي تعزف مع كل رنة من رنّات الأوتار. نعم،

كنتُ صغيرًا، وكنتُ مستعجلًا لتعلُّم العزف، ومستعجلًا لتعلُّم الغناء، كي أكون مطربًا!

* * *

ينفتح باب الغرفة. يطلُّ وجه يوسف: «والله لا أستطيع الجلوس هناك!».

«ادخُل..».

يدخل ويُغلق الباب خلفه: «أمي ـ سامحها الله ـ بكت وأبكت الجميع معها! قلت لها: يما الله يخليك لا تأتين بالفأل السيّء، لكنها ظلت تبكي بصمت دموعها».

يوسف ينظر إلى عوض ويلتفت يسألني: «ما زال نائمًا؟».

«بين النوم والصحو.. يخنس في فترات، ثم يفتح عينيه وكأنه يقول لي: أنا مستيقظ».

«يا حسرتي عليه! ليت المرض أصابني ولم يصبه».

« هذه إرادة الله».

«اللهم لا اعتراض». خطا نحو الفراش، توقّف ناظرًا إلى أخيه، قبل أن يجلس قرب رأسه، ويميل عليه، يطبع قُبلة على جبهته، ويلتفت قائلًا بدمعه: «الله وحده يعلم كم أحبه! هو أحب إخوتي إليَّ».

هيّض بكاؤه بعبارته بكائي. تماسكتُ أمامه، ولحظة خرج انتحبتُ أخفي صوت بكائي.

أستغفر الله العظيم.

أخشى لا قدّر الله لو حصل.. أنظر إلى عوض: الحمد لله ما زال مُستيقظًا ينظر صوبي.

فيمَ تفكر يا ولد خالتي؟

صراخ وعويل الريح الكريه في الخارج.

يتناول عبد الله علبة السجائر، ويتنهّد: ليتني أستطيع تقديم سيجارة لك!

* * *

مشهد خامس

آلة تُغنّي بمفردِها

الأحد، ١٦ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١١:٣٤ مساءً

لا أدري لماذا شعرتُ ذلك المغرب وكأن أمي مرتبكة في نظرات عينيها وحركاتها وخطوها. في حين تلبس هي ثوبها الأسود الخفيف فوق فستانها، قالت لي: «سنذهب لمُوجْب».

استغربت عبارتها، فلم يسبق لي أن سمعت بالمُوجب. أوضحت: «إحدى بنات الفريج مضرورة.. مسكينة، مسّها شيء من الجان وسيُقام لها مجلس قادري..». وقفتُ مشدوهًا استمع لأمي: «القادري؛ إنشاد أشعار في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، تقرّبًا وتبرّكًا!».

كل ما في ذاك المساء بدا مختلفًا وغريبًا، أضافت: «سنسمع تلاوة القادري، المطوّعة ستقرأ على البنت المضرورة، عساها تطرد من جسمها الجان!».

خفق قلبي. أسرعَت إليَّ هيئة صاحبي. دبَّ فيَّ شيء من خوف، ودار ببالي: كيف يدخل جني في جسم إنسان؟

وأيـن يستقر؟ وكيف تطرد التلاوة الجان؟ ومَـن الفتاة المضرورة؟

«ستأتي معي؟». خاطبتني أمي.

«أختي تأتي معنا؟». سألتها، فأسرعت تردّ: «ستبقى في البيت مع يوسف».

ألبستني دشداشة نظيفة، تبخّرنا معًا، وعطّرتني بشيء من دهن العود، وتنظر في عينيّ أوصتني: «لا تخف. ابقَ جالسًا بقربي».

«أخاف من ماذا؟». سألتها.

«سترى وتسمع كل شيء، وإذا حدث أن خفت فتعوّذ من الشيطان، وقل: بسم الله الرحمن الرحيم».

ربما كنتُ في منتصف التاسعة من عمري. أمسكتْ أمي بكفي، وأسدلت بوشيتها على وجهها وخرجنا من بيتنا قاصدين مجلس المُوجب.. رحنا نمشي، وقد حلّت تباشير الظلمة تمسح جدران البيوت برمادها. مررنا بين البيوت الوادعة. خالية بدت السكك الترابية الضيقة، إلا من بعض الرجال العائدين إلى بيوتهم بعد تأدية صلاة المغرب.. بقينا طوال الطريق نمشي ساكتين. وكانت أفكار كثيرة تلعب في رأسي؛ عن الجن والفتاة المضرورة والمطوّعة، وعن القراءة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والقادري.

تاليًا عرفت؛ القادري أحد الفنون التراثية الشعبية!

وصلنا إلى بيت كان بابه مردودًا. دخلنا حوشًا مفروشة أرضيته بالسجاد والبُسط، ومطارح على دائر محيط البيت، وعليها مساند تلتصق الجدار. وقد عُلِّق أكثر من فانوس حول زوايا البيت، في حين رائحة بخور ملأت المكان.

نساء كثيرات كنّ جالسات مُتّكئات على المساند، معظمهن لبسن الثياب السوداء.. سلّمتْ أمي على بعضهن وقبّلت

أخريات.. جلستُ لصق أمي وخوف غريب يسكن صدري. ظل مركز الحوش خاليًا، وكانت عيناي تبحثان عن الفتاة وعن الجان.. أبصرتُ طبلًا وإلى جانبه عصا بطول ذراع يستقر أمام إحدى السيدات. دخلت امرأة مسنة يلفّ شال أسود رأسها. بدت بوجه متجهّم، ممسكة بعصا رفيعة. سبقتها رائحة بخور وشيء من دهن المسك. دبّت حركة بين الحضور. وقفت المرأة في وسط الحوش ورفعت يدها اليمنى، ورفعت صوتها عاليًا: «السلام عليكم يا بنات». نهضَت جميع النساء، وانطلقت العبارة: «وعليكم السلام».

همست أمي بي: «هذه المطوَّعة، امرأة مبروكة ستقرأ القادري».

ما إن أخذت المطوَّعة مكانها حتى انتشر الهدوء في المكان.. كنتُ خائفًا، وكنتُ أنقّل نظراتي في أنحاء الحوش، وأردد بقلبي: بسم الله الرحمن الرحيم. أغلقت إحدى النساء باب البيت، وما لبث أن انفتح باب إحدى الغرف، وخرجت فتاتان تحملان الدفوف، ووزّعتا الدفوف على المطوَّعة ومجموعة من النساء، في حين اعتدلت المرأة ضاربة الطبل بجلستها، قابلته وأمسكت بالعصا.. تحوّل الهدوء لصمتٍ لا تكسره سوى الأنفاس والنظرات وانتظار ما سيأتي.. فجأة انفتح باب غرفة، وخرجت منه امرأة مسنّة تعرج في مشيتها، تلبس ثوبًا أسود، وقد غطّت رأسها بوشاح أخضر. تُمسِك بفتاة لا يظهر منها أي شيء، سوى عباءة سوداء

تغطّيها من رأسها حتى قدميها. نهضت المطوَّعة، ومشت نحو الفتاة. رفعت يدها اليمنى ووضعتها على رأس الفتاة، وأغمضت عينيها. راحت تقرأ بعض سور القرآن، في حين الفتاة تتحرك وكأنها تريد الفرار، لكن المرأة المسنّة تمسك بها. نفخت المطوَّعة على رأس الفتاة المُتفلّتة، قبل أن تعود لتأخذ مكانها. أجلست المرأة المسنة الفتاة متكوّمة على نفسها في مركز الحوش، ووشوشتها بجملة، ومن ثم تراجعت بعرجها لتتركها في جلستها.

أمسكت المطوَّعة بدفٍّ بيدها اليسرى، ووشوشت المرأة صاحبة الطبل بجملة ما، ومن ثم رفعت بصرها ناظرةً إلى النساء حاملات الدفوف، وسرعان ما انطلق نغمٌ ثابت بالنقر على الطبل، بنقرات متتالية وعالية، وما لبثت أن تبعته الدفوف، وسرعان ما اتحدت ضربات الطبل مع نقر الدفوف، وملأ لحنٌ متكرر أرجاء الحوش. لا أدري كيف راحت أجساد النساء تتمايل بهدوء يمينًا ويسارًا، كأن ضربات الطبل تخترق أجسادهنّ فتُحرّكهن بنشوة سرية.

كنت أنظر إلى كومة الفتاة السوداء في وسط الحوش، وكنتُ أنظر إلى المطوَّعة وقد بدأ جسدها يهتز مع الإيقاع، وسرعان ما ارتفع صوتها رخيمًا مبتهلًا:

قولوا شيء لله يا بو العلمين
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

تعالت أصوات النساء مرددة وضربات الطبل وجنبات الحوش:

قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

كانت المطوَّعة تتلو الإنشاد، في حين النساء يرددن خلفها وضربات الطبل تقود اللحن بنقر الدفوف، وحركة كل ما في الحوش:

سيد أحمد جاني، وأنا الوجعاني
يطرد الجاني يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

على غفلة وجدتُ أن اللحن قد مرَّ بي، وأنني صرت أتمايل بجسدي بهدوء يَمنة ويَسرة، في حين كانت أمي هادئة في جلستها تُردد همسًا: «قولوا شيء لله..».

تراءى لي أن شيئًا في كومة الفتاة بدأ يتحرك.. خفت، ورددت: بسم الله..

سيد أحمد طيّار، شقق الأقمار
بيده يطفّئ النار يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

فجأة نهضت المطوَّعة. تركت الدف، وحملت عصاها الرفيعة ومشت قاصدة مكان تكوّم الفتاة في وسط الحوش، وراحت تتمايل مع اللحن إلى الأمام والخلف، في حين عصاها تتحرك صعودًا ونزولًا تمسُّ رأس الفتاة مع ضربات الطبل، وصوتها عاليًا:

قولوا شيء لله يا بو العلمين
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

تأكّدت أن جسد الفتاة المتكوّمة يتجاوب مع اللحن في حركته، ويهتز لكل نقرة من نقرات المطوَّعة على رأسها. مالت أمي عليَّ قائلة: «المطوَّعة ببركة تلاوة القادري تطرد الجان، تخرجه من رأس البنيّة المسكينة!».

قال لي يا صاح، مهرها الأرواح
كم موحّد راح يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

شيءٌ ما لحق بضربات الطبل فأسرع الإيقاع يتصاعد بترديده وحركة الأجساد المتمايلة. ملأ اللحن المتكرر أرجاء الحوش، ومرَّ بالجدران وأعمدة الليوان والفوانيس والهواء، آخِذًا طريقه

إلى السماء. في حين راحت الفتاة المسكينة تتلوَّى من تحت عباءتها السوداء وكأنها أفعى، وكان جميع الحضور مندمجًا ومتمايلًا يستغيث:

شيء لله يا بو العلمين
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

بدت المطوَّعة بنشيدها وحركة جسمها وعصاها غائبة عما حولها، تُنشد بلوعتها وتضرّع صوتها الرخيم: «شيء لله يا بو العلمين!». في حين حركة كومة الفتاة إلى ازدياد، تزحف في حوش البيت حول وقفة المطوَّعة. انتبهت وخفق قلبي بخوفي. وإنشاد المطوَّعة يتكرر عاليًا:

شيء لله يا بو العلمين شيء لله يا رفاعي.. شيء لله

التفتُّ إلى أمي، فوجدتها بخشوعها تردد: شيء لله!

قولوا شيء لله يا بو العلمين
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

شعرتُ أن جميع ما في المكان صار كتلة واحدة، وأن جدران البيت تهتز تردد اللحن. في حين يرتفع الهواء بلحن ضربات الطبل والابتهال إلى السماء، يستجلب بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم.. دون إرادتي تنفّس صوتي مرددًا لحن الإنشاد مع الجميع: قولوا شيء لله، قولوا شيء لله..

قولوا شيء لله يا بو العلمين
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

أصبح واضحًا تحرُّك جسم الفتاة في حركات ثُعبانية متعاقبة، تمسح الأرض بدوائر من حولها، وكأنها تريد التخلّص من شيء يمسك بها. ولأني كنتُ أركّز نظري عليها، بدا لي وكأنها تصدر أصواتًا غريبة.

سيد أحمد جاني وأنا الوجعاني
يطرد الجاني يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

بتسارع لحن الإنشاد، راحت تزداد حركة جسم المطوَّعة، وتسارعت ضربات عصاها على رأس كومة الفتاة، تماشي ضربات الطبل، وفجأة قفزت فتاة من بين النساء بصراخها رمت بنفسها تتلوّى في وسط الحوش. بسم الله الرحمن الرحيم، رددت وخوف قلبي. التصقت بأمي، فمالت عليَّ قائلة: «هذه الفتاة مضرورة أيضًا، ولم يتحمل الجان القادري فدفعها إلى الحوش!».

انتبهت إلى أن كومة الفتاة نهضت واقفة أمام المطوّعة. راحت حركة جسدها تتمايل يَمنة ويَسرة تتبع ضربات الطبل باللحن الساحر. صارت نظراتي موزّعة بين الفتاتين وصوت المطوَّعة عاليًا:

قولوا شيء لله يا بو العلمين

فجأة خُيّل إليَّ أني أرى صاحبي قد حضر لابسًا ثوبًا أبيض، ممسكًا بعصا رفيعة راح يقابل الفتاة الثانية ويعالج الجان فيها كما تُعالِج المطوَّعة الفتاة المضرورة.. التفتُّ إلى أمي، لكنها لم ترَ صاحبي، ظلت مغمضة عينيها تردد وسلام روحها: شيء لله، شيء لله.

لسبب خفي انتشر الفرح بصدري؛ حضر صاحبي وها هو يردد كلمات التضرّع يحاول مساعدة الفتاة الثانية وإخراج الجان اللعين من جسمها. وكم هزّني أنني ميّزت صوتًا يصدر عنه: شيء لله يا رفاعي يا بو العلمين!

سيد أحمد طيّار شقق الأقمار
بيده يطفّئ النار يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

تأكّدت أن صاحبي يبتهل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، يتمايل وقد غشّاه اللحن بضربات الطبل، ويرفع عصاه وينزلها على رأس الفتاة الثانية:

قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

لم تكن الجدران، ولم يكن سقف الليوان بعوارضه الخشبية السوداء، ولم يكن الهواء، ولم تكن السماء بنجومها التي نزلت إلى الحوش، ولم يكن ضوء الفوانيس، ولا أصوات الموجودين بأنفاسهم وجسد الفتاة المتكوّمة، وحركات الفتاة الثانية، وصُراخ المطوَّعة الملتاع بتضرّعها، وترديد النساء بنشوة اللحن الساحر. جميع الموجودات راحت تسبّح بذكر الله، تستنجد متضرّعة ببركات النبي صلى الله عليه وسلم، وكرامات السيد أحمد الرفاعي:

أحمد يا سلطان يا بو العلمين.. قولوا شيء لله..

ظلت أمي بهدأة روحها، تساير لحنًا تردده أرجاء الحوش والهواء والسماء والنجوم. وصوت المطوَّعة الملتاع بمناجاتها:

شيء لله يا بو العلمين شيء لله يا رفاعي.. شيء لله

فجأة انطلقت صرخة عالية من الفتاة، فقفز قلبي بخوفي. التصقت أمي، قلت: بسم الله الرحمن الرحيم.. كل من المطوَّعة وصاحبي ظلا بضربات العصا على رأس الفتاتين، وظلت النساء على تمايُلهن وضربات الطبل واللحن وجدران الحوش وضوء الفوانيس والهواء والسماء القريبة والفتاة بصراخها.

الجميع كان غارقًا في نشوة التضرّع، غائبًا يردد لحن الإنشاد والمُناجاة؛ يبتهل لله، مرددًا خلف المطوَّعة دُعاءها لطرد الجان عن جسم الفتاة.. تكررت صرخات الفتاة، لكن اللحن العالي وترديد: «شيء لله!» امتص صرخاتها، ولم يعرها أحد انتباهًا، في حين ظلت المطوَّعة غائبة ونشوة أدعية القادري:

شيء لله يا بو العلمين شيء لله يا رفاعي.. شيء لله

صار واضحًا أن الفتاة قد نهضت واقفة وأنها تتمايل محرِّكة يديها بشكل عشوائي، وكأنها تريد التخلّص من روحٍ تتلبّسها. تستغيث طلبًا لمساعدة، مُصدِرةً صرخات متشنّجة من خلف سواد عباءتها..

قال لي يا صاح مهرها الأرواح
كم موحّد راح يا سيدي.. يا غرة العين
قولوا شيء لله يا بو العلمين.. يا رفاعي
أحمد يا سلطان يا سيدي.. يا غرة العين

كنتُ أراقب صاحبي بانشغاله وغنائه وحركته وغيابه، وبدا لي أن الفتاة بقربه قد هدأت وما لبثت أن انكفأت على وجهها، تمددت على سجاد الحوش، وقد قرفصت رجليها إلى صدرها.. لمحت المطوَّعة تدنو من الفتاة، تُزيل عنها عباءتها، فتنكشف بنظرات زائغة ورأس عارٍ، وشعر كث،

وطول فارع وفستانٍ أخضر يغطي جسمها. راحت تنتفض بحركات مضطربة. كنتُ مأخوذًا وخائفًا ومستغربًا. مالت عليَّ أمي قائلة: «المطوَّعة، بإذن الله، طردت الجني اللعين من رأس الفتاة، وهي تساعدها الآن!».

إلى أين ذهب الجني؟ وهل سيتلبّس بشخص آخر؟

كل شيء كان يتحرك، وكل شيء كان يردد الدعاء، وكل شيء كان يتضرع لله، وكل شيء يستغيث ببركات النبي صلى الله عليه وسلم، وكرامات سيد أحمد الرفاعي، وكل شيء كان مركّزًا على الفتاة التي هدأت بقرب صاحبي، وكذا الفتاة المضرورة بانتفاضاتها وهي تتمايل واللحن والمناجاة:

شيء لله، أحمد يا سلطان يا سيدي يا غرة العين

فجأة بدأت حركات الفتاة تهدأ، وتحوّلت لتمايُل يُماشي ضربات الطبل واللحن. وفي اللحظة ذاتها هدأت المطوَّعة في حركتها وعصاها. ولا أدري من أين برزت المرأة المسنة العرجاء بشالها الأخضر، تقدمت نحو الفتاة، أعادت وضع العباءة على رأسها دون أن تغطّي وجهها، والفتاة هادئة، وقد استقرت نظراتها. مدّت المطوَّعة يدها لرأس الفتاة تتلو بعض سور القرآن في حين هي تنفخ عليها.. احتضنت المرأة العرجاء الفتاة واتحدتا معًا كجسد واحد، في حين ضربات الطبل واللحن لم يزالا يملآن الحوش ويخترقان الجدران ويهزان الفوانيس، ويتصاعدان إلى السماء.

لا أدري كيف انتبهت لغياب صاحبي! في حين أخذت العجوز تجرّ الفتاة لتأخذها لإحدى الغرف.. خرجت امرأة من بين النساء أيقظت الفتاة الثانية من ذبولها بوضعها الجنيني. أنهضتها وما لبثت أن مشت معها، والمطوَّعة عادت بخطواتها لتأخذ مكانها، ممسكةً بالدف ومرددة بنشوةٍ إنشادَها المتضرّع:

شيء لله، أحمد يا سلطان يا سيدي يا غرة العين
أي بالله أحمد يا سلطان يا رفاعي يا غرة العين
شيء لله، أحمد يا سلطان يا رفاعي يا غرة العين

في تلك الليلة، بقيت مسهّدًا، أتقلب في فراشي، فارقني النوم، في حين حضر اللحن يحيط بي يملأ أُذنيّ، ويتردد في قلبي، وصُوَر الفتاة الممسوسة تظهر لي كلما أغمضت جفنيَّ!

* * *

كأن أبي قد عاد.. يقف إلى جانب صاحبي، ناظرًا إليَّ، وشيء من حزن يغشى وجهه!

بعد وفاة والدي بسنوات، عملتُ في أعمال كثيرة، صرتُ تبّابًا على أكثر من سفينة. أسعى بين البحارة أساعدهم في طلباتهم، وعملت «سيبًا» أقف على حافة السفينة وبين يدي حبل مربوطة نهايته بالغوّاص، أُركّز وانتباه كل حواسي لأي نبرة في الحبل كي أساعد الغوّاص أسحبه ليطفو فوق سطح الماء.. ربما كنتُ

في الرابعةَ عشْرةَ من عمري، حينما انتقلنا مع والدتي من بيتنا في فريج المطبّة إلى «فريج الشيوخ» وسط مدينة الكويت.

أذكرُ ذلك، قبل انتقالنا بأيام، أمسك بقلبي ضِيق لم يسبق أن عرفته، وسدّت بلعومي عبرة غريبة. رحت أدخل غرف بيتنا الصغير، أمسح بعينيّ الجدران والأسقف، وكأني ابحث عن ذكرياتي المُخبّأة بين جنباتها؛ صور طفولتي وصور أبي وأمي وأصوات إخوتي، وأول غناء سمعته في حياتي، وأول مرة أمسكت بالعود مع أخي عبد اللطيف.. أحسستُ كأن للجدران عيونًا بنظرات حزينة عاتبة، وشعرت برائحة تخصّ أهلي تسكن جدران الطين والرواشن وعوارض السقف وأبواب الخشب. تمنّيت لو أقبّل الجدران، أشمّ عطرها، وتمنّيت ألا ننتقل. وكم آلمني؛ سأترك ذكرياتي هنا وأرحل! سأترك شيئًا من عمري هنا. وخجلتُ من نظرات الجدران التي راحت تلاحقني!

لا يمكن أن أنسى اليوم الأخير، حين أخبرتُ أمي: «سأبقى بعدكم، لأتأكد من أننا أَخَذْنا كل شيء».

خرجت أمي وأختي وأخي يوسف. لمحت دمعة في عين أمي.. وحدي بقيت في البيت والبكاء يحيط بي.. فجأة شعرتُ كأني لا أستطيع مغادرة البيت، وأن الحوش يهجم عليَّ مستحضرًا جميع الذكريات والوجوه والأصوات لتحيط بي وتربك خطوتي. شيءٌ ما ظل يمسك بي يشدّني إليه، وصمتًا خرّت دمعتي.

كنتُ في غرفة أمي، وفجأة رأيت صاحبي في زاوية الغرفة. كانت المرة الأولى التي أراه وشيء من حزن يسكن نظرته ويغشى وجهه، وكأنه على وشك البكاء. دار ببالي: هل تراه يحزن لحزني؟

بقيت في مكاني أنظر إليه.. كيف لمجيء البكاء أن يطبع نظرة ووجه الإنسان بملمح ألمٍ لا يمكن تجاوُزه؟ فكّرت أسأله: هل ستبقى هنا أو تأتي معي إلى بيتنا الجديد؟ لم يكن بيننا سوى النظرات الصامتة، ودموعي وألمي بصُراخ وتقافُز الذكريات في رأسي، ورائحة الجدران العابقة.. رحت أنظر إليه أتأكد من نطق عينيه، وما إن اقتربت منه حتى وجدت نفسي ألمس الجدار ولا شيء سوى الجدار! رميت نفسي على الجدار ورحت أهتزُّ ببكائي ونشيجي. وللحظة دار ببالي: متى تراني ألمس خيال صاحبي كي أرتاح؟

لأمرٍ جاء صاحبي الليلة.

لا أدري لماذا جاء! ولا لماذا يبقى مستغرقًا في صمته، مُبتعدًا بوجهه عني!

في بيتنا الجديد، في فريج الشيوخ، كأن الله أراد لي أن أكمل مشوار علاقتي بالعود.. صادقت صبيًّا بعمري اسمه سلطان أحمد سالمين، وعرفت أنه مولع بالعود مثلي.. كلانا كان في العمر نفسه، وفي أحد المساءات اقترح عليَّ: «ما رأيك؛ نتشارك ونشتري عودًا أنا وأنت؟».

ودون تردد أجبته: «موافق».

كأني أرى «سلطان» ونظرة عينيه الفرحة، جالسًا في زاوية الغرفة.

أذكر ذلك، صباحًا باكرًا قصدنا أنا وسلطان دكان «محمد بن زنّان» لبيع أدوات الموسيقى. اخترنا عودًا، ودخلنا في جدل مع البائع، حتى وافق على بيعه لنا بسبعين روبية. دفعت أنا بمساعدة من أمي خمسًا وثلاثين روبية، ودفع سلطان مثلها، واتفقنا؛ العود يبيت ليلة عندي، وينتقل ليقضي الليلة التالية عند سلطان.

لحظة صار العود بين يديَّ تغيّرت حياتي، ما كنتُ لأفارقه، وكنتُ كلما سنحت الفرصة ليلًا، أصعد إلى سطح بيتنا، وأبقى في عزفي إلى حين أذان الفجر، حتى إن الجيران اشتكوا مني، وأنني أزعج نومهم بعزفي طوال الليل. وقتها كنتُ متيّمًا بغناء فن الصوت، أذهب إلى مقهى «بوناشي» أستمع للغناء من «البشتختة»، وأقصد سوق البشتختات والأسطوانات، أو أي مكان فيه غناء أستمع إليه بكل جوارحي من المطربَينِ البحرينيَّينِ: محمد بن فارس، وضاحي بن وليد، وأقف مذهولًا أمام قوة صوت أم كلثوم وجماله. أتحدى نفسي؛ أدندن مقاطع من أغانيها حتى يأتي اللحن على أوتار عودي.

أنا وسلطان شكّلنا ثنائيًّا وصاحبنا أحد عيال الفريج يمسك الإيقاع على آلة المرواس، وكنا لا نكاد نفوّت ليلة دون أن نكون

وسط مجموعة من الشباب، ومعنا غناء فن الصوت.. ما زالت صورة محمد بن فارس تشعُّ بحضورها في رأسي؛ أذكر تلك الحادثة، مساءً أخذني أخي عبد اللطيف معه لحضور حفل سمر عند بعض أصدقائه، وكان المطرب الحاضر محمد بن فارس.. كانت أول مرة أشاهد مطربًا مشهورًا وهو يغني! اختلطت مشاعري وأنا أرى ابن فارس أمامي، الرجل الذي بقيت لسنوات أسمع صوته على البعد. تمنّيت لو أجلس إلى جانبه كي ترتوي نفسي بسماع صوته. أو أسلّم عليه فتحتضن كفّه كفّي. أو تأتي عيناي بعينيه فأرى كيف يعبّر عن نفسه بغنائه. لكني بقيت بعيدًا في جلستي، لا أكاد أرفع سمعي وعينيّ عن أي كلمة يتفوّه بها، وأي إشارة تصدر عنه. ولقد لفَتَني أنه حين انتهى من الغناء، نهض واقفًا بثقةٍ فاردًا جسده، وقد دسَّ عباءة تحت إبطه. شعرتُ به معتزًّا بنفسه وفنه، وأن الجميع ينظر إليه باحترام وإعجاب!

زاد تعلّقي بابن فارس مساء وليمة ربابنة سفن البحرين لربابنة سفن الكويت. كنتُ أعمل على السفينة، وكانت راسية قرب الساحل الشمالي لجزيرة المنامة.. ضجَّ الميناء بالخبر السعيد؛ وليمة كبيرة ستُقام على ظهر إحدى السفن؛ عُلِّقت فوانيس «اللوكس» الكاشفة، وفُرشت الأرضيات بالسجاد، وفاحت رائحة الطعام الزكية تملأ الميناء.. توافَد كبار التجار والطواويش والنواخذة والضيوف.. تراكض جميع البحارة للعشاء والأكل الطيب. لكني ركضت لرؤية

والاستماع لمحمد بن فارس. انحشرتُ بين البحارة، أنظر إليه على البعد، يتوسّط النواخذة بحضوره المشع. كان يتكلم، وكان يضحك، وكان يُحرك يديه، في حين استقر العود أمامه! كنت أتمنى ألا يغيب عن عينيّ.. وكم حرّك قلبي لحظة بدأ الغناء، فلاحت لي صورة صاحبي يجلس خلفه مُتبسّمًا.. غبت مع غناء ابن فارس، ونغم المراويس تردّ عليه، في حين تصفيق أكف البحارة يكاد يحرّك الميناء بمن حوله، ولحظتها شعرت وكأن السفينة تُبحر في موجٍ يكاد يُلامس السماء.

أدمنت تقليد غناء فن الصوت. وأمضيت أوقاتًا طويلة حتى تعلّمت عزف أغنيات أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وكانت أول أغنية عزفتها لمحمد عبد المطلب «يا حبيبي ليه كتر جفاك»، وكم دغدغني أن أغني الغناء العربي! فلقد غدا معروفًا بين الشباب أنني أغني أصوات محمد فارس، وتاليًا أصوات ضاحي بن وليد، إلى جانب إجادتي لأغاني السيدة أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب. لكن حادثة لقائي مع المجدّمي يوسف بن يعقوب غيرت حياتي!

* * *

أشعرُ أن دويّ ريح مزعج في سمعي! لماذا تضايقني الريح الليلة؟

أحاول أن أميل برأسي. أنظر إلى ولد خالتي عبد الله عله يساعدني.

الليلة؛ حضر صاحبي وحضرت بي ذكريات عمري. تلمع أمامي وكأني أراها!

المجدّمي يوسف بن يعقوب كان قد أرسل في طلبي، فذهبت لمقابلته في عمارة أحد التجار التي تقابل شاطئ البحر. حين سلمت عليه بادرني قائلًا: «نريدك بحّارًا معنا».

«أنا لستُ بحّارًا».

استغرب هو ردّي، وكذلك الرجل الجالس إلى جانبه. ولأنه راح ينظر إليَّ، أخبرته: «أنا مطرب».

بدا وكأنه لم يستسغ عبارتي لصغر سني.. أعرف أن المجدّمي هو رئيس البحّارة، وهو عين وسمع النوخذة على السفينة. وأزيد من دهشته أضفت بثقة لا أدري من أين واتتني في تلك اللحظة: «حصتي ستكون «قلاطة» وربع».

ضحك وارتفع صوته: «قلاطة، هي حصة البحار عن موسم السفر كاملًا، وأنت تطلب قلاطة وربع!».

لحظتها خُيل إليّ أنّ وجه صاحبي بنظرة واثقة جاء ليحط على الحائط خلفه. وأزيد في طلبي قلت: «أريد قلاطة وربع ومئة روبية مقدّم».

لحظة صمتٍ حلّت بيننا. راح المجدّمي ينظر إليَّ وكأنه يزن طلبي ليتعرّف على مدى جدّيتي، فحينها ربما كنتُ قد جاوزت

السادسة عشرة بقليل، بدشداشة ورأس مكشوف، وغترة مرمية على كتفي. شاب ضعيف، يُناظرني وجه صاحبي، وصوت المجدّمي: «سأوافق بعد أن نجرِّبك ونسمع غناءك». قالها وكأنه يختبرني، أو يتحدى أن يكون هذا الشاب الواقف أمامه قادرًا على أن يكون مطربًا على سفينة تصارع الأمواج.

«اتفقنا».

بقيت ثلاثة أيام ووسواس الغناء يملأ رأسي وقلبي! سأذهب لمقابلة المجدّمي وسأغني! لحظتها انتبهت كم هو صعبٌ أن تغني! وكم هو صعبٌ أن تُقنِع المستمع بصوتك وغنائك وأدائك! وأصعب من ذلك أن تحمل لقب مطربٍ عن كفاءة واستحقاق!

ما كان لنا من معيل، أنا وإخوتي نتلقّط أرزاقنا، في حين تتردد أمي إليَّ لكوني أكبر أبنائها: «أنت رجل البيت!». كنتُ أشعر أن نظرات أختي تراقبني.. أخفيت وساوسي عن الجميع، ومساء يوم الخميس التالي حملت عودي، وانسربت خُلسةً من البيت. مشيت إلى المكان المتفق عليه. دخلت حوش بيت كبير فوجدت ما يزيد على الثلاثين رجلًا، معظمهم أكبر سنًّا مني. كانوا قد افترشوا بسطًا على الأرض في جلسة مربّعة، في حين احتل المجدّمي صدر الجلسة: «حياك، حياك..». رفع يده مُناديًا يشير إليَّ: «البحّارة بانتظارك».

داهمتني لحظة خوف؛ كانت المرة الأولى التي أغني في حشد من الناس، وكان الامتحان، وكانت سمعتي، وكان ثمن عيشي وأمي وإخوتي، وكان... جلست إلى جانبه في صدر الجلسة، وعيون الجميع تلتهمني. نادى هو شابين وكل منهما يحمل آلة مرواسٍ في يده، وشاب ثالث حمل آلة كمان. هاجسٌ ما عبرني: أنا في امتحان كبير؛ سأغني مع إيقاع آخرين. يجب أن أقود العزف والإيقاع وأغني. فجأة جاءت إليَّ كل أغاني فن الصوت، وجاء محمد بن فارس، وضاحي بن وليد، وأم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وجاء أبي، وأخي عبد اللطيف، وصديقي سلطان.

«تفضّل، تفضّل، الشباب مُتشوِّقون!».

أعطى المجدّمي إشارة البَدْء. أطفأتُ سيجارتي، وأبعدتُ نظري عن أي شخصٍ، مُستحضرًا نبرة الغناء في صدري وقلبي، ودون تفكير بدأتُ العزف على العود ليرتفع صوتي مغمّسًا بحلم يحوم حول رأسي ويملأ قلبي. غنّيت صوت «يا غصين البان». وما هي إلا لحظات حتى ضجّ حوش البيت وارتفعت الأكف بالتصفيق، وما هي إلا لحظات حتى وجدتني أغيب وغنائي، أغوص في ذكريات روحي، ويأتي صوتي مردّدًا لما في خاطري.

ليلتها نسيت كل ما حولي، وليلتها غنيت ما أعرف وأتقن، وليلتها جن جنون الرجال بالتصفيق والرقص، وليلتها راحت كلمة: «أَعِدْ، أَعِدْ...» تتطاير من حولي، ولا أنسى في تلك الليلة

حينما رفعت رأسي فوجدت صاحبي بوجهٍ باسم يتابع حفلة الغناء قرب الدرج. وحدي مَن استشعر وجوده، وخُيّل إليَّ أنني سمعته يقول وابتسامته: «الليلة صرت مطربًا! الليلة ولِدَ عوض دوخي»، لا أدري إن كنتُ سمعته أو دار ببالي لحظة وشوشني: «منذ الليلة اقترن حضورك ووجودك بالغناء والطرب! وصباح الغد سيعرف الكويتيون أن مطربًا شابًّا وُلِدَ بينهم، جده ووالده كانا نهّامَين يعلو صوتهما مُعانقًا شراع السفينة، وكذا خاله ماجد كان نهّامًا، وأخوه الأكبر عازف عود ونهّام، لكنه وحده سيكون مطرب الكويت الأول!».

كأن صاحبي يستمع لتلاوة القرآن، مُعرِضًا عن النظر إليَّ! ولا أدري إلى أين ذهب والدي!

* * *

مشهد سادس

كيف لإنسان أن يبيع أنفاسه؟!

الأحد، ١٦ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١١:٥٤ مساءً

بدأتُ أشعر بشيء من الدوخة والنعاس، لا أريد أن أسهو أو أغفل عن عوض.

الله يمضّي هذه الليلة على خير.

أم بدر قالت: «منذ أمس، عوض يتفوّه بكلام متقطّع، لا أحد يدري ماذا يقول».

سبحان الله؛ عوض الصوت الذي تغنّى الجميع بألحانه وكلماته لا يستطيع الكلام!

أذكر يوم كنا معًا في سيارتي، نقصد إحدى حفلاته. أشعل سيجارة، فما كان يطيق لحظة دون أن يكون غاطسًا في التدخين والدخان. أخذ نفَسًا طويلًا. التفت إليَّ، وفاجأني سائلًا: «تظن عمري قصيرًا؟».

استغربت سؤاله، حينها لم يكن قد أصابه أي مرض، وكان في أكثر لحظاته الغنائية حضورًا وتسجيلًا في الكويت والبحرين، وزياراته للقاهرة والوطن العربي. بادرته: «لماذا هذا السؤال؟!».

ظل يمتصّ سيجارته. ردَّ: «ماذا تظن؟».

«يا أخي إن شاء الله عمرك طويل، لكن لماذا تفكّر في هذه الأمور؟!».

ظل ساكتًا وقد احتلت نظرة غريبة وجهه، وبعد برهة أفلت: «الله يرحم الوالد».

أكملنا طريقنا صمتًا، وهو يتلهّى بالسيجارة. ولحظة نزل من السيارة وتناول صندوق عوده، توقّف ناظرًا إليَّ، وبنبرة هادئة كلّمني: «صرتُ أخاف كلما دُعِيت إلى حفلة. لا أدري من أين يأتيني ذلك الصوت، يصبُّ عبارته البغيضة في أذنيّ: عمرك قصير يا عوض!».

أخافتني جملته. تجمّدت لا أعرف بماذا أردّ. وبمرارة قال بعد برهة: «تعال، تعال».

لحظتها تحيّرت ولطمني السؤال: هل ناداني عوض، أم كان يُنادي الموت؟ في حين راح هو يمشي مُبتعدًا عني!

خالتي وأم فهمي وأم بدر ويوسف وأبناء عوض؛ الجميع في الغرفة المجاورة. كأني بأصواتهم قد هدأت. تأخر الوقت. لكنَّ أحدًا خلف باب الغرفة: «تفضّل».

تدخل خالتي: «تفضّلي».

تخطو مُصطحبة دفقة بردٍ معها. تغلق الباب خلفها. عيناها تتفقّدان ولدها «عوض» في تمدده على الأرض: «شلونه؟».

«كما ترين».

«تكلّم؟ قال أي شيء؟».

«لا، فقط ينظر إليَّ..».

«الله يلطف بحاله، تعبَ كثيرًا».

«خالتي، تأخر الوقت، نامي قليلًا، ارتاحي».

«من أين أجيء بالنوم؟ قلبي عند ولدي».

تندّت عيناها بدمعها. لا أدري ماذا أقول لها: «تجلسين قليلًا؟».

تنظر إليَّ والحزن يغطّي وجهها: «أنا خائفة. الله يطمئن قلبي عليه».

انتبهتُ إلى أن «عوض» يفتح عينيه، فبادرتها: «خالتي، عوض ينظر إليك».

تدنو منه. تجلس واضعة يدها على رأسه وتبدأ في قراءة سور من القرآن الكريم.. تمرّ فترة صمت. قبل أن تطبع قُبلة على جبهته: «ربي يلطف بحالتك يا وليدي». يُداهِم البكاء نبرتها. تنتحب.

«خالتي صلي على النبي».

تنظر إليَّ بدموعها، وتنهض لتستدير خارجة من الغرفة، قائلةً: «اللهم صلِّ على سيدنا محمد!».

ما زال عويل الريح الباردة في الخارج. هل الريح خائفة على عوض؟

ليت بيدي شيئًا لأساعدك يا عوض.

السيجارة والدخان وتلاوة المقرئ من حولي.

عينا عوض مفتوحتان. لا أدري فيمَ يفكّر، أو ماذا يدور في رأسه!

* * *

حين كبرتُ أدركت أن هناك لياليَ بعينها صنعت حياتي.. أكثر الليالي تمرّ خاوية لا تحمل سوى الظلمة ونوم الأموات. لكنْ، هناك ليالٍ غيّرت حياتي، وربما كانت ليلة امتحان المجدّمي يوسف بن يعقوب على رأسها! غصبًا انتزعت نفسي من حفل السمر، وقد وقف المجدّمي يودّعني باسمًا، وخاطب البحرية: «ما رأيكم؟».

«تمام.. والنعم.. مطرب!». تقافزت الكلمات بشهادات الاستحسان من كل جانب، فصافحني المجدّمي: «تعال غدًا خُذ السلف، وعُدّ نفسك مطرب السفينة معنا».

«قلاطة وربع ومئة روبية». ذكّرته.

«الرجل يُربَط من لسانه، وقد اتفقتُ معك».

لا أدري ماذا جرى لي في تلك اللحظة. تذكّرت نبوءة أبي: «عوض سيكون مطربًا». وجاءني حزني لفقده.

كأن أبي عاد يقف قرب صاحبي. عاد يكلّمني: «يا ولدي سنلتقي..».

أسمع كلماته واضحة، فأسأله: «أين نلتقي يا أبي؟» يبقى ناظرًا إليَّ دون أن يُجيبني.

كلاهما ساكت؛ أبي وصاحبي!

في تلك الليلة، حين نجحت في اختبار المجدّمي. دار ببالي: الآن صارت لديَّ مهنة، وصار بإمكاني إذا ما سألني أي إنسان:

«ماذا تشتغل؟». أن أفرد طولي، وأنظر في عينيه، وباعتزازٍ أردُّ: «أنا مطرب!».. لم يكن رأيًا واحدًا. المجدّمي وجميع البحّارة، رددوا: «تمام.. مطرب!».

كنت ممتلئًا بفرحي! جاءت إليَّ هيئة أختي أم بدر، فهمستُ لنفسي: لن تأسَى بعد الليلة، صار لأخيها مهنة يعيش منها ويُعيل أسرته. كنت أسير فَرِحًا خفيفًا وهدأة الليل، حاملًا عودي في سكيك الفرجان المظلمة، أعبر براحاتها الخالية. كل شيء كان نائمًا، ووحدها أحلامي كانت قد استيقظت بفرحي.. تمنّيت لو أقف وأطرق أبواب البيوت بيتًا بيتًا، وأخبر الجميع: صرت مطربًا. وأن أرفع صوتي بكل ما أمكنني صارخًا: عوض ولد دوخي صار مطربًا على سفينة المجدّمي يوسف بن يعقوب، وغدًا يتسلّم السلف مئة روبية مقدّم!

لوهلة شعرتُ أن أحدًا يتبعني فتوقّفت أتلفّت ورائي، لكن ليس سوى أشباح الظلمة، قلت لنفسي: الجنُّ مذكور في القرآن وهو يحب الظلام ويستوطنه. بسملت وتعوذت من الشيطان الرجيم! دار ببالي ربما هو صاحبي حضر يهنئني ويفرحُ معي! أكملت طريقي والظلمة معي والصمت. وددت لو أبشّر أمي لحظة أصل إلى البيت، لكنها ستكون نائمة.. في تلك الليلة ضجّت الأفكار في رأسي، لكني توقّفت مرة ثانية، فكأني لمحت خيال شخصٍ يتبعني. أعدت: بسم الله الرحمن الرحيم. بقيت

متوقّفًا في مكاني، وقد شدّت يدي على رقبة العود، لكن لا شيء يلوح على البعد، وليس سوى سواد خيالات الظلمة. أكملت طريقي وأشياء كثيرة تشوّش تفكيري بسروري.

لحظة وصلت إلى باب بيتنا، وقبل أن أستخرج المفتاح، ولا أدري كيف برز لي أخي يوسف. جفلت متراجعًا: «بسم الله الرحمن الرحيم». لكنه أسرع يقول: «سامحني، تبعتك منذ خرجت من البيت، وحضرت حفل السمر كله!».

استغربت حضوره. بقيت صامتًا لا أدري ماذا أقول، فعاد يُكلّمني: «أنا مثلك أحب الغناء، وأحبك أنت، وقد فرحت كثيرًا الليلة بغنائك وسط...».

لم أردّ عليه، فتحت الباب، فجاءني صوت أمي: «أين كنتَ؟».

فوجئتُ بأنها مستيقظة تنتظرني، وفوجئَتْ هي بوجود يوسف معي: «أخذت أخاك معك؟!».

«لا، أنا ذهبت خلفه دون علمه». دافع يوسف عني.

تجاهلَتْ أمي جملته وعادت تخاطبني بضيقها: «بعد قليل سيدخل وقت الفجر! أين كنتما؟».

«كنت في حفل سمر عند المجدّمي يوسف بن يعقوب». استغربت هي جملتي، وظلت تنظر إليَّ فأوضحت:

«نجحت في الامتحان، ووافق، سيأخذني مطربًا معه على سفينته، وغدًا سأذهب إليه في عمارته لأخذ السلف منه..».

كأني أرى وجه أمي الحبيب بنظرتها. صعب عليَّ فهمه في تلك اللحظة. أكملتُ أحدّثها: «سيعطيني قلاطة وربعًا وفوقها مئة روبية نقدًا».

ليالٍ كثيرة غابت من بالي، إلا تلك الليلة ما زالت حية وباقية، وصوت أمي: «الله يوفقك!».

* * *

أشعر بأن «عوض» واعٍ. عسى ربي يلطف بحالته. ربما من الأفضل لو سقيته بعض الماء. هو لم يشرب ولم يأكل منذ العصر.. الطبيب نصح بنقله لغرفة العناية..

حسرتي تملأ صدري؛ والله لا أدري ماذا أفعل!

أسقيه بعض الماء.

«اشرب عوض.. ماء». أضع يدي تحت رأسه أرفعه قليلًا وباليد الأخرى أحاول أن أسقيه.

«اشرب ماء، اشرب..». بالكاد يفتح فمه: «اشرب..».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

أضع رأسه على المخدة، وأمسح بقايا الماء عن جانبيّ فمه. لا أدري ماذا أفعل.. نظراته معلّقة بوجهي.

آه، نسيت.. المسجّل توقّف ولم أنتبه. سأعيد تشغيله.

هدأت الأصوات في غرفة الأهل، ربما ناموا.

وحدي وعوض وتلاوة القرآن.

* * *

تلك الليلة قرّبتني أكثر من أخي الأصغر يوسف. صارت لحظتنا لحظة واحدة، فهو عاشق للعود مثلي، وهو عاشق للشعر والغناء، وهو القارئ الذي لا يملّ قراءة الكتب؛ كتب الموسيقى والتراث والتاريخ، ولا ينفك يُحدّثني عما يقرأ، ولا يملُّ يكرر عليَّ: «سأدرس الموسيقى، وأنال أعلى الشهادات!».

في بيتٍ واحد عشنا، ومعًا تنفّسنا الكلمات واللحن والغناء، وتقاسمنا الألم ونتف الفرح.. هو الأقرب إليَّ، ولقد بقينا معًا إلى حين ذهابه إلى القاهرة لإكمال دراسته الموسيقية، تمهيدًا لتحضير الماجستير والدكتوراه.

سافرت مع المجدّمي مُغنّيًا على السفينة، وبعدها طار اسمي بين التجّار والنواخذة والمجدّميّة والبحارة؛ عوض مطرب.. أمرٌ ما ظل يؤلمني؛ حينما رجعنا إلى الكويت شعرت بأن الجميع يطرب لصوتي، والجميع يسعد بغنائي، لكن كيف للغناء أن يكون مهنتي التي أعيش بها ومنها؟ أنا أخجل من قول: أريد فلوسًا مقابل غنائي. وأخجل من الوقوف أمام شخص مادًّا يدي في حين هو يُساومني على مبلغ لعزفي وغنائي. الغناء نفَسي

في الحياة، وكيف لإنسان أن يبيع أنفاسه؟ ناقشت الأمر مرارًا مع يوسف، قلت له: «لا أستطيع! طلب المقابل يحرجني، ولا يهمني جمهور كبير لا يُقدِّر ما أعزف وأغنّي، وتطرب روحي لشخصين يُشاركانني كل نغمة أُغنّيها!».

اعتراف المجدّمي وموافقته لأخذي معه مطربًا على السفينة، كرّس عشقي للموسيقى، وأكّد لي أن حياتي ومستقبلي مرهونان فيها؛ لذا صرت لا أفوّت فرصة للاستماع إلى الغناء. طوال وقتي أبحث عن أي مكان موجود فيه «بشتختة»، أو كما يقول البعض «الفونوغراف»، في ديوانيات الفريج، وفي المقاهي، وما أكثر ما ترددت على «مقهى بوناشي». عشقت غناء فن الصوت، وهمت بعظمة أداء سيدة الغناء العربي أم كلثوم، وصوت محمد عبد الوهاب!

كنت أجلس قرب البشتختة أستمع بكل حواسي، أتذوّق كلمات الأغنية واحفظ إيقاع لحنها، وأسرع عائدًا كي أعزفه على عودي. وكم تحدّيت نفسي بقدرتي على الوصول إلى لحن أغنية جديدة أغنّيها! أمضيت سنوات وأنا أغنّي على السفن، وفي حفلات السمر، وبين أصدقائي، حتى صار الغناء هو حياتي، وحياتي هي الغناء. لكن، في ذلك الوقت، عام ألف وتسعمائة وستة وأربعين صدّرت الكويت أول شحنة بترول، وكان ذلك بدءًا لتغيّر كبير أثّر في كل وجوه الحياة في الكويت؛ البَشَر والحجر..

أهل الكويت عاشوا عقودًا وهم في ضنك العيش ومراراته، يُصارعون البحر والظلمة والموج والموت للحصول على لقمة العيش.. بيوت من الطين، لا ماء ولا كهرباء، وكل لقمة تأتي بتعب. لم يكن لهم من مُعين سوى وقوفهم جنبًا إلى جنب في السرّاء والضرّاء! ظلوا يدعون الله، في كل حين، أن يمنَّ عليهم بما ينقذ حياتهم من قسوة البحر وأهواله، ولقد استجاب الله لهم، وتفجّر الذهب الأسود في أرضهم. لكن، فلوس النفط كشّرت بوجه البحر، وما لبثت أن طردته من حياة أهل الكويت. طردت الغوص وطردت السفر، وأبعدت الكويتيين عن اليامال والنهمة!

هجرَ الكويتيون البحر، وأداروا وجوههم عنه! تمددت السفن بحسرتها خشبًا يابسًا يئن على السيف بوحدته وحزنه، وليس من أحد يسأل عنه أو يهتم لبؤسه. وحدها الريح ظلت تلعب وتصفّر بين جنباته. بعض السفن فُككت واستُخدِم خشبها لأسقف المنازل الجديدة. توقّفتْ رحلات الغوص، وخفّت كثيرًا رحلات السفن الشراعية التجارية، وراح شباب الكويت يقصدون إدارات الدولة وشركة النفط والشركات الجديدة للتوظّف عندها. وهنا صعد السؤال الصعب إلى قلبي: ماذا يمكن لمطرب أن يعمل في إدارات البلد والشركات التجارية؟

شهور وشهور مرّت عليَّ وأنا أقبع في غرفتي، أخجل من النظر إلى نفسي في المرآة.. شاب دون عمل، فانوس مطفأ! شاب

لا يكدّ على أسرته، نخلة واقفة دون ثمر! شاب ليس له سوى العود والعزف والغناء، سيطعم أسرته البؤس ويسقيهم الحاجة.. آخر سنة ركبت البحر كانت مع النوخذة محمود بن عصفور، عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين.. بعدها بدأت رحلة حياتي المُرَّة بحثًا عن عمل أعيل به أسرتي!

* * *

علِمتُ أن شركة «طه فون» في «شارع دسمان» تُسجّل أسطوانات للمطربين في الكويت، وبما يعود عليهم ببعض المال والشهرة. فحزمت أمري: أنا مطرب، سأسجّل أسطوانة وأجرّب حظي.. استيقظت باكرًا، فكّرت في أخذ عودي معي، لكني قلت: أول مرة أتفاهم مع الشركة.. مشيت قاصدًا شارع «دسمان»، وحين وصلت إلى المحل، رأيت غلاف أسطوانة باللون الأبيض، موضوعة في واجهة المحل عليها كتابة باللغة الإنكليزية وتحتها رسم لغزال باللون الأسود، وتحتها كُتب: «الأستاذ عبد الله فضالا ـ (١)، يا ليل دانا، صوت كويتي». عبرني الهاجس الحلم: سيكون لي أسطوانة باسمي! دخلتُ فوجدت رجلًا يجلس خلف مكتبه. وقد ظهرت خلفه مجموعة من الأسطوانات، وبجانبه جهاز «بشتختة» بسماعة صفراء لامعة.

«السلام عليكم». سلّمت عليه. تريّث الرجل قبل أن يردّ. تفحّصني بعينيه الصغيرتين من رأسي حتى قدمي. حينها كنتُ

قد جاوزت السادسة عشرة من عمري. أرتدي دشداشتي وأرمي بالغترة على كتفي. تسبقني وتفوح من دشداشتي رائحة التدخين، وقد مسّت الجمرة أكثر من مكان وأحرقته.

«وعليكم السلام».

«أنا عوض دوخي».

قدّمت نفسي. ظل الرجل ساكتًا ينظر إليَّ. دار ببالي أنني جئت للرجل في ساعة نحسٍ.

«أنا طه صبري علي، تفضل..».

شعرت وكأنه يطردني، لكني قلت: «أنا مطرب وأريد أن أسجّل أسطوانة».

ظل جالسًا وبقيت واقفًا. علت عينيه ووجهَه نظرةٌ لم أستطع تفسيرها: «هل لكَ أغانٍ؟».

«أغنّي أصوات محمد بن فارس وضاحي بن وليد، وشيئًا من أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب».

«ليس لديك أغانٍ تخصّك؟».

«أنا مطرب، وقد سافرت مع أكثر من نوخذة».

«غنِّ، سمّعني».

فاجأني طلبه. شعرت وكأنه يتحدّاني. تحيّرت لا أدري ماذا أُغني، جاء ببالي صوت: يا من هواه أعزّه وأذلّني:

«أغني صوت؟» سألته.

«غنِّ ما تشاء».

كنتُ قد استيقظت من النوم، ووحدها السيجارة سلّكت حبال صوتي، في حين سكنني الخوف لحظة دخولي المحل، ربما هي ساعة نحس.. بلعت ريقي، وبعثت أُغنّي بصوت خجل:

يا منْ هواه أعزّه وأذلّني كيف السبيل إلى وصالك دُلني

«يا أخ أنتَ مرفوض!».

صفعتني جملته المُتعجّلة. بقيت واقفًا أنظر إليه. وكما لو أنه يُنهي لقاءنا القصير، أشاح بوجهه عني، تناول دفترًا أمامه، وراح يقلّب أوراقه.

خرجت منه فخُيّل إليَّ أن ظلمة سوداء تَغشى ضوء النهار. حمدت الله أن أحدًا لم يكن في المحل وسمع الجملة التعيسة: «أنت مرفوض!». رحتُ أمشي بالكاد أسحب قدميّ. ابتعدتُ قليلًا. جلست على الأرض، وأسندت ظهري إلى جدار خلفي. شعرتُ بفمي ناشفًا، ولساني قد تحوَّل لقطعة خشب. استخرجت علبة سجائري، ولففت سيجارة بللت طرف ورقتها الصغيرة بحرقة قلبي.. أخذت نفسًا أضغط تعاسة صدري، وأنفخ دخّانًا أطرد به ضيق روحي!

طويلًا ستبقى تلك الجملة الصفعة ترفرف فوق رأسي: «أنت مرفوض!». بألمي ودُخاني رفعت بصري أنظر إلى محل التسجيلات، دار ببالي، أنهض لأعود للرجل أقول له: وحدها الأيام ستثبت لك مَنْ أنا! ووحدها الأيام ستجعل حكمك باطلًا! لففت سيجارة ثانية وقلبي يغلي بحسرتي وضيقي: طه فون لن يكسرني! طه فون لن يوقفني! طه صبري علي، سأنتصر عليك، وستعلم مَن هو عوض دوخي! وسيأتي يوم يذهب فيه طه ومحل تسجيلاته لكن «عوض» سيبقى!

كنت مستندًا بظهري أدخّن سيجارتي وبصري معلّق على واجهة المحل، حين تراءى لي وجه صاحبي وقد

غطّى واجهة المحل بنظرة صَعب عليَّ تفسيرها. وما لبث أن طبع صورتي بوجهي على واجهة المحل، وراحت صورتي تتكرر على جدران البيوت والمحال التي بقربه. هزّني منظر صورتي مطبوعًا على جدران البيوت، وكدت أُجَن حين رأيته وقد انطبع على جدران البيوت المقابلة أيضًا! تلوّنت جدران الشارع بجهتيه بصوري!

لملمتُ نفسي، وأطفأت سيجارتي في التراب أمامي، ونهضت نافضًا الغبار عن دشداشتي، وبهدوء رحت أقترب من المحل، لكنْ حين دنوت منه، لم تكن هناك سوى الواجهة بأسطوانة عبد الله فضالة، ولم يكن سوى طه يجلس خلف مكتبه.

* * *

لا أدري كم مضى عليَّ وأنا سارح أستمعُ لتلاوة المقرئ؟

لسبب عشق عوض صوت هذا الرجل.. وحده كلام الله يهدئ من روعي في هذه الليلة.

هدأ كل مَنْ في البيت، ووحدها الريح ما زالت مجنونة تعربد في الطريق، تعوي بأعلى صوتها تنادي أو تحاور شيئًا بعينه. هل تراها الريح تدفع شرًّا عن عوض، أو أنها تنادي سوءًا ليأتي؟

بهدوء ينفتح الباب وتدخل خالتي ويوسف خلفها: «بشّر؟». سألتني.

«لا جديد..». أجبتها.

تقترب من فراش عوض، تجلس بقرب رأسه وتمدّ يدها إلى جبهته. في حين يوسف واقفٌ إلى جانبي.

«يا حبيبي، ما عاد يستطيع سحب أنفاسه.. الله يعينه!».

مرت لحظة هدوء، وصوت يوسف يسأل: «ننقله إلى المستشفى؟».

«إن شاء الله أول الصباح». رددت عليه.

«بعيد الصباح..». علّقت خالتي وأطلقت تنهيدة: «اذهبا إلى الغرفة الثانية. أريد أن أبقى وحدي مع عوض».

نظرتُ إلى يوسف، واستدرت تاركًا الغرفة فمشى خلفي.

«عسى ربي يرأف بحالك يا وليدي!». سمعت جملتها، وصوتها: «بسم الله الرحمن الرحيم..».

* * *

في ذلك الصباح، حين رفضني طه، لم أرجع إلى البيت، خجلتُ أقول لأمي: أنا فشلت، وكرهت أقابل أختي وأخي؛ فكلاهما يعرفني. أنا مفضوح؛ كلاهما سيقرأ عينيَّ وسحنة وجهي لحظة دخولي، وسيُحاصرني السؤال: ماذا بك؟

لسبب لا أعلمه قصدت بيت الفنان أحمد الزنجباري، وكنتُ قد تعرفت عليه قبل سنوات، وصرتُ أزوره ويوسف، نحضر الحفلات في منزله، ونلتقي مع مطربين من الكويت والخليج، وقد نشأت صداقة خاصة بيني وبينه.. أحمد الزنجباري إنسان طيب القلب. رجل موسيقيّ بامتياز، درسَ أصول الموسيقى في بلده اليمن، وعرفَ مقاماتها وتعلّم كتابة النوتة، ويعزف على أكثر من آلة. ولم يكن يبخل بتعليم كل من يقصده قطَ.. بيدٍ مترددة طرقت الباب، وفوجئ هو لحظة وجدني واقفًا. فما تعوّدت زيارته صباحًا.

«تفضل أخي عوض، تفضل». استقبلني بترحابه المعتاد وابتسامة ودّه، ونظرة عينيه الحانية.

أفسحَ لي مجالًا، فدخلت لأجلس في الصالة.. كل ما بي كان حزينًا، وكان مُنكسرًا؛ لذا بقيت ساكتًا لا أدري ماذا أقول له، وفيما يشبه رجاءً سألته: «إذا رفض شخص أن يسجل لكَ أسطوانة، وقال عنكَ: أنتَ مرفوض، هل يعني هذا أنكَ لست بمطرب؟».

«ما هذا الكلام يا عوض؟». هوّن عليَّ: «سأعمل شايًا، ونتحدّث».

تركني وكأنه خمّن الموضوع، وأراد لي أن أهدأ، وما لبث أن عاد يحمل صينية عليها «قوري» شاي، وكأسان، وصحن مليء بكعك الدرابيل: «أكيد أنت لم تفطر؟». سألني بلطفٍ ظاهر.

شربت الشاي، وأكلت الدرابيل، ودخّنت سيجارة وأخرى، ونقلت إليه حادثتي مع طه فون!

«رأي الرجل يخصّه، وما حصل في صالحك». استغربت جملته، لكنه أكمل: «هذا تحدٍّ لك. الفنان لا معنى لحياته وفنه إن لم يُلاقِ تحديات، ويعزم على تجاوُزها».

كنتُ أنظر إليه وكأن كلماته ماء يبلل عطشي: «أنت مطرب يا عوض، وصوتك خامة متميزة ومتفرّدة، فلا تدع أحدًا يثبّط همتك!».

أمسكَتِ العَبرة بي. هذا رجل فنان، وهو صديق الفنانين في الكويت والبحرين، ولا يكاد بيته يخلو من حفل كل أسبوع، وقد درس وفهم علم الموسيقى، وسبق له أن سمعني مرارًا أُغني أمامه، وهو يقول إنني مطرب:

«عوض..» لفت انتباهي لما يريد قوله: «أنتَ في بداية الطريق، والمشوار ليس سهلًا، لكنك إن واصلت فسيتغنّى الجميع بصوتك..»، توقّف ثوانيَ قبل أن يُكمل: «لك خامة صوتٍ بمساحة قرارٍ عريض ورخيم، وكأنه خيوط حرير! وقلما سمعت قرارًا شجيًّا كما صوتك!».

دون وعيٍ نهضت أقبّل أحمد.. صحيح أن كلمة «مرفوض»، ستلازمني سنوات طويلة، لكن الصحيح أيضًا أن كلمات الزنجباري في ذلك الصباح زرعت بي ثقةً كبيرة، وخلقت لدي تحدّيًا ظل يدفعني في كل وقت نحو تأكيد موهبتي وتقديم الجديد، كي أستحق أن يتغنّى الجميع بصوتي!

الليلة أنا أتكلم وحدي، لا أحد يسمعني، تمنّيت لو يسمعني عبد الله، أو حتى صاحبي! لكنه يقف هناك وقد شاخ شيءٌ في وجهه.

في موجب القادري سمعته يردد التضرع بفضل النبي صلى الله عليه وسلم وكرامات السيد الرفاعي. لكنه الليلة يقف صامتًا.

أنا لم أغنِّ القادري، لكني غنيت «الطنبورة» و«الليوة».

«هل تُغني معي القادري؟». أرفع صوتي أسأل صاحبي، لكنه يبقى صامتًا بصده؟

* * *

عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، صادف أن كنتُ في ساحة الصفاة حينما سمعت المطرب عبد اللطيف الكويتي يغني بميكرفون فيسمعه جميع مَن في منطقة ساحة الصفاة. حين اقتربت عرفت أنه يغني في بث مباشر من «إذاعة شيرين» لصاحبها «مراد بهبهاني». توقّفت مع أناس كثر، شدّهم الغناء، في

حين صوت عبد اللطيف يلوّن الساحة ويجمع الناس من حوله، مُرتفعًا في الهواء:

فزّ قلبي فزّ قلبي يوم شاف الغاويات
طول ليلي أتقلّب صابني حب البنات

شيءٌ ما دار ببالي وأنا أبتعد عن المكان والناس. فكرةٌ ما تمثّلت أمامي. لحظة وصلت إلى البيت، أخبرت يوسف: «ما رأيك أن أبث أغنية في إذاعة شيرين؟».

«زين..» راح ينظر إليَّ مُضيفًا: «سيسمع صوتك وغناءك كل أهل الصفاة!».

خفت أخبره: «ماذا لو رفضني صاحب الإذاعة؟»، لكني بلعت جملتي، وفي اليوم التالي قصدت محل الإذاعة، فقابلني السيد مراد: «السلام عليكم».

«أهلًا أخ عوض». ردَّ عليَّ بترحاب نظرته. سرَّ قلبي أن الرجل يعرف اسمي: «عساك تريد الغناء في إذاعتنا؟».

فاجأني استقباله اللطيف وعرضه، أكمل قائلًا: «لقد استمعت لكَ مرة في بيت أحمد الزنجباري».

سألته: «عسى غنائي أعجبك؟».

«ليس غناؤك فقط، بل صوتك وطريقة غنائك!».

فرحت روحي بجملته، وقلت: «تسلم، تسلم».

«أهلًا وسهلًا..».

شربت الشاي مع الأستاذ مراد. تحدّثنا في أمور كثيرة تخصّ عزفي وغنائي، واتفقنا على موعد الغناء. أمضيت يومين أفكر ويوسف فيما سأقدّم، وأخيرًا توافقنا على صوت: «يشوّقني برقٌ» الذي حفظته من محمد فارس. رددت الأغنية أمام يوسف وبحضور أختي أم بدر، حيث استوقفتني قائلة: «غنِّ على طبيعتك، لا تتعجل، صوتك حنون!».

تمرّنت على الأغنية بمصاحبة أخي يوسف عازفًا على الإيقاع.

صباح يوم الغناء صحبني يوسف. دخلنا إلى الإذاعة معًا، أحمل عودي ويحمل هو «دنبك» الإيقاع. وكم أسعدني الأستاذ مراد قائلًا: «خذْ راحتك، الميكرفون أمامك. غنِّ كأنك في جمعة أصدقاء».

لا يمكن أن أنسى أول غناء في الإذاعة، حينما قربت العود لقلبي رحتُ أدندن والميكرفون أمامي، ونظرات يوسف تُحيطني، قبل أن أغيب عما حولي، ويرتفع صوتي بغناء روحي:

يُشوّقُني برق من الحي لامعُ

لعل به تبدو الرُّبى والمرابعُ

وحيث طرا عرف النسيم إذا سرى

تذكّرت ما ضمّته تلك المواضعُ

لأني على التذكار ما زلت والعًا

وما زال قلبي نحو سعدك ينازعُ

عرفتُ الهوى لكن جهلتُ فعاله

وكيف وقد ضمّته مني الأضالعُ

إذا لعلع البرّاق وهنا من الحمى

حبا القلبُ وانهلت عليه المدامعُ

* * *

آه يا ولدي، أنت ممدد على فراش المرض، وروحي مرِضة أكثر منك!

ربي يعلم كم دعوت: عسى المرض يصيبني وتنجو أنت!

والله كأن جبلًا يجثم فوق صدري. منذ أيام وأنا لا أعرف كيف أعيش!

اللهم لا اعتراض.. ولدي ما زال شابًّا فلماذا؟ أستغفر الله العظيم.

يا ولدي أنا تجرّعت معنى اليتم المُرّ حين مات أبوك. رحت أنظر إليكم والحسرة تحرق قلبي: يتامى!

منذ عودتك من لندن وأنا حزينة. يسرع الدمع لعينيّ كلما نظرت في وجه أحد أبنائك، أطفال صغار، مَنْ سيعيلهم؟ ومَنْ سيكون

سندهم في الحياة؟ فهمي، وصبحي، ومريم، وفهد، وباسم، ومحمد.. كنتُ أقرأ الفرحة في عينيك مع قدوم كل مولود.. كُنت تسرع إلى التصدّق على الفقراء، وتعدُّ وليمة لجميع الأسرة والأهل والأقارب. وكنت لا تخفي فرحك، تردد: «الأطفال هدايا الله الحبيبة للإنسان!». كما أنك ما كنت تطيق رؤية طفل محتاج! ولا أنسى حين دخلت عليك في أحد المساءات فوجدتك وزوجتك وعيالك حول سفرة العشاء، ولحظتها غمر السرور وجهك، نهضت قبّلت رأسي قائلًا: «هذه أحلى اللحظات..» أجلستني إلى جانبك، وأكملت تقول: «الحمد لله، ربي أنعم عليَّ وأعطاني الكثير».

أعلم كم تحب كل طفلٍ من أطفالك، لكن يا ابني يا عوض أنتَ حبك في قلبي منذ صغرك، أنتَ أول ولد رزقني الله إياه، وأنت نور عيني، وأنت من شعَّ حضورك وارتفع اسمك بين الناس داخل الكويت وخارجها. لكن يا ابني أنت نفسك وجعي وكسر قلبي!

انتحبت أم عوض محاولة إخفاء صوت بكائها، لكن باب الغرفة انفتح، وأسرع يوسف يخاطبها بهلعه: «مات عوض؟».

وتنظر إليه بعين دامعة قالت: «لا».

مشهد سابع

قلبٌ يمتصّ الألحان

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١٢:١٥ صباحًا

الريح تعوي في الخارج، ودوي الدوخة في رأسي.

للتو خرجت خالتي ويوسف.. علبة السجائر، والدواء أمامي على الطاولة الصغيرة. سأتناول حبة «أسبرين» مع كأس ماء، ربما ارتاح قليلًا.

قبل قليل أدرتُ شريط تسجيل القرآن من البداية مرةً ثانية.. كلما انتهى وجه قلبته على الوجه الآخر. لا أريد له أن يتوقف؛ عوض طلبه، ووحده يملأ الغرفة بكلام الله المبارك.

يا رب ساعد عوض! يا رب ارحمه برحمتك.. للتو فتح عينيه. تصوّرت أن طيف ابتسامة لاح على وجهه. اهتزَّ قلبي وخاطبته: «عوض يا خوي، تكلّم، قل أي كلمة!».

ظل ينظر إليَّ، دار ببالي أنه يسمعني، وأنه يفهم كلامي لكنه لا يقوى على الرد.

* * *

بعد غنائي في إذاعة «شيرين»، قابلني ماشيًا في السوق الداخلي، رجلٌ عرّفني بنفسه: «أنا عبد الله الشرهان، صاحب إذاعة أوميجا». مدَّ يده يصافحني رحبت به مُبديًا توددي: «أهلًا وسهلًا».

«سمعتك تُغني في إذاعة شيرين. أحببت غناءك، فتعال غنِّ في إذاعتنا».

«حاضر». أجبت بسرور.. دعاني فجلسنا في قهوة «بوناشي». تكلّم معي عن فن الصوت، وعن طريقة غنائي التي تشبه طريقة محمد بن فارس، واتفقنا على موعد التسجيل، وغنّيت في إذاعته صوت:

يا غُصين البان ما جاز ليش تشكي

عند من لا ينفعك دنيا وأخرى

بعد ذلك بأيام، مررت بالمحل أسلّم عليه، فأخبرني وفرح نظرته: «لكَ أخبار طيبة عندي».

«خيرًا إن شاء الله».

«أحد الأشخاص الذين استمعوا لغنائك في إذاعتنا، أخبرَ أمير البلاد الشيخ أحمد الجابر، عن غنائك، وأنك تجيد غناء الصوت بشكل لافت..».

كنتُ أستمع إليه وفرحٌ غريب يغمرني. أمير البلاد سمعَ بغنائي!

«الشخص تصوّر أنك مطرب بحريني. وحين سألته: لماذا؟ أجاب بأنه يعرف أصوات المطربين الكويتيين ولم يسبق له أن سمع صوتًا بهذه البحة والرخامة، وأضاف: إنك تُجيد غناء فن الصوت بتلذذ وطرب مختلفين، وتؤديه على طريقة مطربي البحرين!».

«هل أخبرته بأني كويتي».

«طبعًا، وهو بدوره تشوّق للتعرف عليك، وأخذ اسمك ونقل الخبر إلى الشيخ!».

لا أدري ماذا جرى لي. أُغنّي في ساحة الصفاة، ومِن ثَم يصل اسمي إلى أمير البلاد، قلت: الحمد لله.. تشكّرت إلى الأخ الشرهان كثيرًا، لكنه ردَّ عليَّ: «لم أعمل شيئًا. هذا حقّك، وإن شاء الله القادم أفضل».

* * *

لم يكن القادم أفضل. قضيت شهورًا وشهورًا وأنا نائم في ظلمة غرفتي، لا عمل لدي. أخجل من رؤية أمي وأختي.. الأصدقاء يدعونني إلى جلسات السمر، وكنتُ أذهب حبًّا وتقديرًا لهم، ولأدفع الملل والضيق عن نفسي، ولأثبت لنفسي والجميع أنني مطرب، وأني أقدّم فن الصوت وكذلك الأغاني العربية بالطرب الجميل. لكن، في كل مرة أعود إلى البيت والضيق يمشي معي. شابٌّ يعيش عالة على أسرته، وليس له سوى عزفه وغنائه.

«الغناء لا يُطعم خبزًا!». لا أدري أين قرأت أو سمعت هذه العبارة الكريهة. لكنها ظلت ترفرف فوق رأسي، تسير معي حيثما ذهبت. فبعد تصدير البترول، توقّف عمل المطربين والنهّامة في سفن الغوص وكذلك سفن السفر. بدأ العيش في الديرة يلبس ثوب واقعٍ جديد. واقع مسَّ البشر والحجر وغيّرهم! فمع تدفّق فلوس النفط على الديرة، أخذتْ بعض الأسر تترك منازلها القديمة، في منطقتي «شرق» و«جبلة» و«المرقاب»، وتنتقل إلى مناطق جديدة خارج السور.

دوي الريح في أذنيّ.

أتمنى لو يترك صاحبي مكانه قرب الشباك، ويأتي إليَّ.

كم دار السؤال المعذِّب ببالي: كيف يظهر هذا الوجه واضحًا لي، دون أن يراه أي إنسان؟ ولماذا كلما اقتربت منه تبخّر كأنه لم يكن؟!

منذ انتبهت لحضوره الليلة، لا يزال يلزم مكانه. وكأنه يردد والمقرئ!

* * *

«التثمين» كلمة جديدة ارتفعت لتنتشر بين أهل الكويت. صارت حديث البيوت والدواوين والمقاهي! فكرة سيطرت على اهتمام أهل الديرة، واحتلت مجالس وأحاديث الجميع، الغني قبل الفقير؛ الحكومة تُثمّن البيوت القديمة لأصحابها، تعطيهم أثمانًا مغرية وكبيرة، كي ينتقلوا خارج السور إلى مناطق جديدة. يسكنون فِللًا جديدة متعددة الأدوار من الخرسانة المسلّحة، بدلًا عن بيوت الطين، وأسقف العوارض الخشبية السوداء، التي تخرّ في الشتاء، وينعمون برخاء توفّر الماء والكهرباء، وحتى السيارات.

لا أدري لماذا ارتفع، في تلك الفترة، ضيقٌ غريبٌ راح يملأ صدري! شعرتُ بتوق الناس ولهفتهم لرمي ضنك الماضي وأوجاعه ومآسيه والذهاب إلى بريق الجديد. دار ببالي؛ حينما تترك الأهالي منازلها وتنتقل إلى بيوت جديدة مختلفة، فإنها تنزع عنها ثوب عيشها، وتصبح غيرها! تتخلّى عن الكثير من مما

اعتادت، وتبدأ في اعتياد جديد مسَّ المجتمع بحضوره الساحر.. كنتُ أمشي بحزني ودخان سيجارتي بين البيوت القديمة التي تركها أهلها. هامدة ومظلمة وموحشة. وللحظات تتعالى في رأسي أصوات أناس كانوا فيها. وأردد بحسرتي: مسكين الماضي، كم يقسو عليه الجديد!

صاحَبَ بَدْء عملية التثمين، شقّ وتعبيد طرق جديدة.. وحده البحر والبحارة خسروا كل شيء! كنت أمشي وحيدًا على السيف، ومطارق نجاري السفن وأصوات النهّامين والبحارة وغناؤهم يملأ رأسي.. من قصر «دسمان»، مرورًا ببيوت منطقة شرق، وصولًا إلى قصر «السيف»، وحي الوسط، وسيرًا حتى شواطئ منطقة جبلة.. تحوّل شاطئ البحر إلى مقبرة كبيرة، تمددت أجساد السفن فيها؛ الأبوام الشراعية من جميع الأنواع تخشّبت وقست أضلاعها بيباسها، وسكنتها الريح العابرة. توقّف الكثيرون عن ارتياد شاطئ البحر، وانقطعت أغانيهم بخفّة أرواحهم. واكتفى «الطواويش» والتجار والنواخذة وحتى المجدّمية بالجلوس على الدكّات أمام دواوين بعض الأسر في مقابلة شاطئ البحر، وكأنهم يكتفون بالنظر إلى البحر واجترار قصصهم بذكرياتهم، بدل العمل معه.

كنتُ كلما ضاق بي الوقت، قصدت البحر، وكأني أواسيه في نكران الناس له، وأردّ شيئًا من فضله عليَّ. فكل خبرة

حياتي جاءت من البحر. في صغري عملت تبابًا بين البحارة، واشتغلت سيبًا أسحب الغواصين على حافة السفينة، وصرتُ مطربًا أغنّي بين البحارة. كنتُ أسرق نفسي. أذهب مساءً إلى البحر بعيدًا عن الأعين؛ نتسامر أنا وهو، أشكو إليه حالي، ويرد عليَّ القول بالموج.. أجلس وحدي ودخان سيجارتي. أبوح له بهمّي وحزني: أنا يا بحر مطرب. أنا يا بحر شاب دون عمل! أنا بطّال عطّال أقضّي وقتي في غرفتي. أخجل من نظرات أمي وأختي، وأخشى كلام عيونهما.. أنت تعرف يا بحر، ماذا غير الغناء عملًا لمطرب؟ لكن الأصدقاء من حولي يطلبونني للغناء، غناء الصداقة، غناء تزجية الوقت، غناء السهر، غناء المتعة، غناء أي شيء إلا المال.. أنت يا بحر تعرف؛ كرامتي لا تسمح لي بأن أطلب من أصدقائي مقابل غنائي، ولا هم يقدمون شيئًا لي. وكم واجهت نفسي: كيف أطلب؟ كيف أقف أمام رجل، أيًّا كان، وأمدَّ يدي له قائلًا: أريد مئة روبية أو مئتين عن غنائي. الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطاني صوتًا حلوًا، وأنا أغنّي بخفق قلبي، ولن أبادل أنفاسي بمال ونقود! لذا صرتُ أتعذّر منهم، وصار البعض يصفني بالتكبّر.

يا بحر، أنت صديقي وتعرف خصالي.. كنتُ أجلس وموج البحر وجمرة سيجارتي التي لا تفارقني، ووحده البحر يفتح صدره إليَّ ويبادلني ضيقًا بضيق وحزنًا بحزن، وبوحًا ببوح،

تكلّمني أمواجه: الكثير من أصدقائك هجروني. تنكّروا لي، وقسوا عليَّ. ما عادوا يأتون لزيارة شواطئ والسمر على رمالي.. في أحد لقاءاتنا قلت للبحر: ما دام الغناء عاجزًا عن إطعامي وأسرتي، فإنني لن أستسلم، وسأبحث عن أي عمل، وسأشتغل بأي صنعة. العمل عيش للإنسان. أنا بدأت حياتي عاملًا تبّابًا على السفينة في البحر، لكن تغيّر الزمن، وجاء الوقت لأكون عاملًا على البر!

مرت عليَّ أيام وأيام وأنا أتنقّل من دائرة إلى أخرى بحثًا عن عمل، وإلى حين عثرت على وظيفة في مطافئ مدينة الأحمدي كعامل إطفاء. بقيت ستة أشهر. شهدت حرائق كثيرة، وآلمني أرى نارًا عمياء تأتي على بعض بيوت البشر وتأكل تعب أعمارهم. ولأني بقيت أتألم كل يوم؛ قلت لنفسي: شاب عاش عمره على الماء لا يقدر على مصادقة النار. وكان أن تركت عمل الإطفائي، وانتقلت للعمل في وزارة الأشغال عاملًا في المخازن. كان العمل يدويًّا مُنهِكًا وليس من راحة فيه طوال اليوم. لذا عطفَ صديقٌ عليَّ فأخذني للعمل معه في وزارة الصحة. لكنْ بعد أقل من شهرين جاء قرار نقلي للعمل في المستشفى الأميري فرفضت ذلك تمامًا، قفز عليَّ الهاجس: أحب الحياة ولا أريد العمل بقرب المرضى والمرض. وكان أن عدت لوَحْدة غرفتي. وحينها ساعدني أحد أقاربي بتوسّط من أمي وعملت سائق لوري

في البلدية.. ابتسمت في الأيام الأولى وأنا أجد نفسي عاليًا مرتفعًا خلف «سكان» اللوري أمرّ بين السيارات الصغيرة. لكن سرعان ما جزعت روحي بانهمار الأوامر عليَّ، ووجدت نفسي لا أطيق قول كلمة: «حاضر» طَوال الوقت. فاعتذرتُ وتركتُ العمل، وحينها اشترينا أنا وأخي يوسف سيارة خصصناها لتكون «تاكسي». وأذكر مرة حين انتهت إحدى حفلات السمر وبادرني صديق عازف عود، معجب بغنائي يسأل عن عملي، فأجبته: «ليس لديَّ عمل».

«تعال اعمل معي في إدارة البلدية، العمل بسيط وطوال اليوم نجلس في المكتب».

ساعدَني وعملت معه في البلدية، واستقرت حالي مع تناوُب العمل مساءً على سيارتنا التاكسي أنا ويوسف. ولا أدري مَن وشى بي وأنني لست منتظمًا في حضوري الصباحي، ففوجئتُ بنقلي إلى إدارة الجمارك، في قسم «المانيفست». وهناك بقيت إلى حين قابلت الشيخ جابر العلي، واستغرب وضعي، ونقلني موظفًا لديه في وزارة الإعلام!

* * *

الحمد لله، كأن صداع رأسي قد هدأ قليلًا. همس عبد الله يكلّم نفسه.

عوض مغمض العينين. أخافني قبل قليل، شعرتُ به وكأنه لا يتنفّس، اقتربت منه، لكنه والحمد لله بخير.

إن شاء الله مع طلوع أول ضوء، أطلب سيارة إسعاف وأنقله إلى المستشفى.. سيعتنون به أفضل مني، فأنا لا أستطيع عمل أي شيء له.

باب الغرفة ينفتح، وتدخل أم فهمي سائلة: «عساه أحسن؟».

«الله كريم».

تخطو لتقف ناظرةً إليه. همست قائلة: «أبو أولادي، الله يعلم كم أحبّه..».

أبقى ناظرًا إليها، لا أدري بما أردّ، فتُكمل: «هو كل شيء في حياتي: زوجي وأبو عيالي وفخري وسعادتي!». جاء البكاء لنبرة صوتها.

«ربي يشافيه..» قلت أواسيها.. ظلت واقفة ودموعها، تُتمتم بكلمات لا تصلني. قالت: «كلنا مُستيقظون نأمُل في تحسُّنه..».

«الله كريم...».

* * *

حين انخرطت في عملي الجديد، زاد تعلّقي بشيئين: القراءة والتنقل من كتاب إلى آخر، وعزفي وغنائي. كنتُ أشعر أنني أؤدي

ما عليَّ من واجب تجاه نفسي وأسرتي، ومِن ثَمَّ أشتاق لقراءتي وعودي وغنائي كي أشعر أني أعيش. استأجرت بشتختة وأدمنت سماع غناء الصوت بمطربَيَّ المفضَّلَين: محمد بن فارس وضاحي بن وليد، وزاد تعلّقي بموسيقى وغناء أم كلثوم وعبد الوهاب، في حين رحت أستمع لمحمد عبد المطلب وكارم محمود وسعاد محمد، وكنتُ أمضّي الساعات أستمع بتلذذ مُتذوِّقًا الموسيقى ومتفكّرًا في نغمة كل آلة. أعيد المقطع مرة تلو الأخرى. توطّدت علاقتي بأحمد الزنجباري، وتملّكني سؤال يلحّ عليَّ ويكاد لا يغيب عن فكري: كيف أستطيع أن أقدم الأغنية الكويتية بشكل مبتكر؟ كيف أطوّرها وأقدّمها بطريقة تُلبّي الكويت الجديدة؟ وما الذي بإمكاني أن أضيفه لغناء فن الصوت التراثي المتوَارث؟ وتساءلت مرارًا: الصوت يُغنّى بآلة العود والمرواس والكمان، لكن ماذا لو دخلت عليه آلات أخرى؟ كنتُ حين أسمع الغناء العربي أتلذذ بسماع اللحن، وأطرب للموسيقى، أحاول سماع نغم كل آلة لوحدها، وكيف تتجانس نغمات الآلات ليأتي لحن الأغنية، وكيف يتَّحِدُ المطرب بلحن الأغنية، ويغنّي كلماتها.. كنّا أنا وأخي يوسف لا نتوقف عن الحوار وعن الأسئلة والاستماع للأغاني والعزف، وكنا أحيانًا نفتح حوارًا في مجلس الزنجباري ونسمع مختلف الآراء.

أذكر أنني سألت الأستاذ الزنجباري مرة: «ما أحب المقامات العربية إلى قلبك؟».

ابتسم قبل أن يقول: «في الموسيقى لا معنى لقول: أحب هذا المقام وأكره ذاك. المقامات جميعها وبشكلها العام جميلة. لكن، لكل مقام شخصيته ولونه الخاص، وعلى الملحِّن اختيار المقام المناسب لما بين يديه من أشعار يريد وضع الحان لها. فمقام «الرست» وهو سيد المقامات العربية له شخصيته المميزة، كذلك مقام «البياتي» و«النهاوند»، فهذه المقامات تتيح للملحن مجالًا واسعًا لأن يضاعف جرعة التطريب في الجمل الموسيقية التي يلحنها. بالمقابل فإن هذه المقامات لا تصلح حين نود التعبير عن الحزن كما في مقام «الصَبا»، أو عندما نريد وضع الحان للأناشيد الحماسية، التي تناسبها مقامات على سبيل المثال: مقام «العجم» ومقام «الكُرد».

كنتُ أستمع له وأشعر أن كل ما في روحي يتشرّب بقوله.

* * *

كما تنقُّلي من مكان إلى آخر في عملي، كانت الكويت تنتقل من حال إلى حال، من هيئة بيت إلى آخر، من بيت طين إلى فيلا خرسانة مسلّحة، ومن سكّة ترابية ضيّقة إلى شارع أسفلت عريض. بدا المجتمع ينزع ثوبًا عرفه وعاش به، ويجهد بلهفته للباس ثوبٍ عصري جديد؛ ولذا دار ببالي: كيف للموسيقى والغناء الكويتي أن يتغيّرا ليلبسا شكلًا جديدًا؟ كنتُ أشاهد الكويت تتحول

من بساطة العيش الإنساني إلى تعقيد المجتمعات الجديدة؛ ولذا رحت أعزف الصوت التراثي، ولكن بأشكال جديدة أجرّبها بيني وبين نفسي.

حين جاءني قدر الله في مرضي قبل سنوات، حزنت على نفسي، وآلمني أني أمضيت الكثير من عمري بين أعمال لم تُدرّ عليَّ سوى تعب لقمة العيش.

أذكر أنني كنتُ في حوار مع يوسف. وسكتُّ برهةً قبل أن أقول: «باكرًا توفي أبي يرحمه الله».

استغرب هو جملتي العرضيّة. راح ينظر إليَّ فأضفت: «لو بقي حيًا فلربما ما احتجت إلى العمل في أي وظيفة».

لم يعلّق بأي كلمة. فأضفت قائلًا: «ربما كنتُ طوّرت من نفسي أكثر».

نظرتُ إلى أخي، وكأني أكلّم نفسي همست: «المطرب الفنان يجب أن يبقى مشغولًا بفنه، فجميع الأعمال الحياتية تنتهي لحظة التوقف عنها، إلا الفن يرفض التواري والغياب، يبقى حيًّا، حاضرًا ومتجددًا بين الناس!».

احتلت ابتسامة وجه يوسف ونظرته، وعلّق: «يا سلام عليك! كل مرة تفاجئني بفكرة! وإن شاء الله غناؤك سيبقى في نفوس وقلوب الناس دائمًا».

أذكر ذلك المساء. كنت في غرفتي أدندن والعود، حين دخلت عليَّ أمي وأختي.. قرأت شيئًا على وجه أختي ونظرتها، في حين علت ابتسامة وجه أمي.

«يا هلا، تفضّلا». قلتُ مُرحِّبًا.

«عسى ما تردّنا كما المرات السابقة». بادرت أمي، ففهمت سبب الزيارة. كلّمتني أختي: «هذه المرة غير، البنت حلوة، ومن عائلة كريمة، وكل ما فيها جميل».

عبرت لحظة هدوء بيننا، فعادت تكلّمني: «يا حبيبي يا عوض صار عمرك سبعًا وعشرين سنة، ماذا تنتظر؟ يكفي..».

لا أدري سببًا أنطقني في تلك الليلة، وربما وحدها القسمة والنصيب، وربما حاجتي إلى امرأة تحبني وتدفع عني غول وحدتي، وربما رغبتي في امرأة تمشي طريق الحياة معي. شيء ما حرّك لساني لأقول: «أنا موافق».

«لازم تعرف البنت أولًا!». استدركت أمي بفرح صوتها. ولم يَمضِ شهر إلا وتزوّجت.

* * *

أعوذ بالله من هذه الريح! لا تريد أن تهدأ. ليس بيننا وبينها سوى الجدار.

هدأت أنفاس عوض، وزادت إغماضة عينيه، صرتُ بين فترة وأخرى أميل عليه لأقرّب أذني من صدره أتأكد من أنفاسه.. وكم سعدت قبل لحظة حينما فتح عينيه ناظرًا إليَّ. تمنّيت من كل قلبي لو يُكلّمني، وتمنّيت لو أسمع كلمة منه، ولا أدري كيف خرّت دمعتي، ودار ببالي؛ كيف ضعف عوض حتى إنه لا يستطيع أن يتفوّه بكلمة؟ وآلمني أنني أنتظر منه كلمة لا تجيء!

اللهم لا اعتراض! يا أالله يا كريم، الطف بعوض، يا أالله ساعده؛ فليس لنا إلا عونك ورحمتك.

سأشعل سيجارة جديدة كي أبقى يقظًا، فالنعاس يلفّني ويكاد يُسقطني.

* * *

أعياد كثيرة مرّتْ عليَّ، ووحده ذاك العيد لن أنساه، فهو العيد الذي حملني للشهرة مساء قابلت الخالة عودة المهنا، مطربة التراث الكويتي الأولى في السوق، وكنا في آخر شهر رمضان. سلّمت عليها، فبادرتني: «غدًا بعد صلاة العيد، استمِع لإذاعة الكويت».

يومها وقفت أنتظر الخالة لتوضح قولها، لكنها قالت: «استمِع للإذاعة وستعرف كل شيء!».

ولأنها تركتني واقفًا في حَيرة جملتها، فلقد فهمت أنها توجّهني إلى أمر مهم، وأن هناك شيئًا يستحق أن أتابعه في الإذاعة..

في اليوم التالي، وبانتهاء صلاة العيد، وكنتُ في السيارة مع الوالدة، إذ بي أسمع صوت المذيع يقول: «الآن، مع أغنية «لي خليل حَسْينْ» كلمات الشاعر أحمد العدواني، وألحان المُلحّن أحمد باقر، وغناء المطرب شادي الخليج».

الله الله، قلتُ وسعادتي، شاعر ومُلحن كويتي، ومطرب لأول مرة أسمع اسمه.. جلستُ أستمع لأغنية كويتية تصاحبها فرقة موسيقية وقلبي يكاد يخرج من صدري بفرحي! فرقة موسيقية تعزف لونًا غنائيًّا ربما «الشبيثي»، لمُغَنٍّ كويتي شاب بصوت آسر:

لي خليل حَسْينْ يعجب الناظرين
جيتْ أنا ابغى وصاله كود قلبه يلين
القمر طلعته والغزال لفتته
والسحر فتنته في النحر والجبين
صادني في هواه ما سباني سواه
آه من حسنه آه كل ما له يزين
في حديثه فتون في دلاله فنون
في سبيله يهون كل شيء ثمين

الله الله! رددت مرارًا ونفسي.. ليلتها لعبت بي أفكار كثيرة، كنتُ مشوَّشًا، وجل ما فكّرت به هو الفرقة الموسيقية، فلقد كنتُ أحلم بأن أُغنّي مع فرقة موسيقية؛ لذا تساءلت: كيف تألّفت

هذه الفرقة؟ ومن يقودها؟ وأين مكانها؟ وبقدوم الصباح قصدت قصر نايف، في طريقي لمبنى الإذاعة. التقيت صديقي حمد المؤمن رئيس المذيعين. استقبلني بودٍّ كبير: «يا هلا عوض، يا هلا ومرحبا». أخبرني عن تأسيس فرقة موسيقية للإذاعة، وما زلتُ أذكر كيف خفق قلبي حين دخلتُ صالة لأرى عازفين وآلات موسيقية، وأذكر كلمات المؤمن: «حياك تعال سجّل معنا».

رحت أنظر إلى الآلات الموسيقية والعازفين، وبشيء من رجاء سألته: «هل يستطيع أخي يوسف أن يأتي معي ونتعرّف على الفرقة؟».

«بكل سرور».

مُسرعًا عدتُ إلى البيت، وفرحي يسبقني: «الإذاعة أسست فرقة موسيقية!».

فوجئ يوسف بالخبر: «تعال نذهب حالًا للتعرف عليها».

في الطريق إلى الإذاعة، أخبرت يوسف: «مطلوب مني أن أسجّل أغنية للإذاعة، وعلينا التعرُّف على أعضاء الفرقة أولًا، والآلات التي يعزفون عليها».

* * *

كنتُ متحمّسًا جدًّا وأنا أنتقل من آلة إلى أخرى، في حين صديقي حمد يعرّفني على العازفين، وقبل خروجي من الإذاعة،

اتفقت معه: «في اليومين القادمين سنجلس مع الفرقة ونرتّب لحنًا وأغنية».

«اتفقنا».

جلسنا معًا أنا ويوسف لترتيب تسجيل أول أغنية لي في إذاعة الكويت. قلت ليوسف: «كما قدّم شادي الخليج لحنًا جديدًا على قالب كويتي تراثي، فأنا سأفعل الشيء نفسه.. أحب فن الصوت، وسأختار أغنية منه». لحظتها جاءتني تلك الجملة: «يا أخ أنتَ مرفوض!». فقلت لنفسي: الآن سأثبت أنني لستُ مرفوضًا، سأغنّي في الإذاعة، وسأجعل الجميع يعرف ويعترف بعوض دوخي! وأزيد من تحدي نفسي، قلت ليوسف: «سأغنّي صوت: يامن هواه أعزّه وأذلّني بلحن جديد مني لم يسمعه أحد من قبل!».

لم يكن هو يعلم عن سبب اختياري لهذه الأغنية، وأنها الأغنية نفسها التي قيل لي فيها إنني مرفوض. ردَّ يقول: «تمام، لكن عليك أن تقدّمها بشكل جديد».

«سأعيد تلحينها لتكون تراثية وجديدة وعصرية كما الكويت».

استمعت مرارًا للأغنية بصوت مُغنّيها ضاحي بن وليد. كانت بلحن بسيط من مقام البياتي كنتُ أريد لفكري ولقلبي أن يمتصا اللحن، وأن يتشرّبا به.. خلال اليومين التاليين، أمضينا أنا ويوسف جلّ وقتنا مع الفرقة. تعرّفت على رئيس الفرقة عازف الكمان نجيب رزق الله، وكم هزَّني الخبر لحظة عرفت أنه كان

يعزف خلف السيدة أم كلثوم! رحت أختلس النظر إليه أراقب نظراته من خلف نظارته الطبية، وكان إلى جانبه عازف القانون محمد رضا غنيمة.. بقيتُ مشوَّشًا بأفكاري وحماستي وفرحي وعزمي على أن أقدّم أغنية تُلاقي قبولًا وترحيبًا، وتكون قادرة على تقديم صوتي بكل إمكاناته. قلت للأستاذ نجيب: «الأغنية من فن الصوت، وقد غنّاها المطرب البحريني ضاحي بن وليد، وأنا سوف أغنّيها على طريقتي وبلحنٍ منِّي!».

عزفت أمامه الأغنية على العود، وقلت: «أريد كل الآلات الموسيقية أن تصاحبني وتعزف معي لحني الجديد».

لمحت نظرة في عينيه لم أفهمها. نادى أعضاء الفرقة، وطلب مني إعادة الغناء، وكان يصغي متلذّذًا ولحن الأغنية. كنتُ ضائعًا بأفكاري في حين راح يوسف يسجل الآلات: العود، المرواس. القانون، الكمان، الناي، الرق، الكونترباص.. سهرنا أنا وهو للاستماع للّحن القديم، والخروج منه إلى لحني الجديد وتقديم الأغنية بروح كويت عصرية جديدة.

«يجب أن تتدرّب مع الفرقة». نصحني يوسف، وبقينا حتى ارتفاع أذان صلاة الفجر ونحن في تصوّر كيفيّة الاستفادة من كل آلة.. فوجئتُ حين ذهبت في اليوم التالي للفرقة، أن نجيب قد كتب اللحن وفق النوتة الموسيقية. ففرحت مرددًا: «شكرًا جزيلًا».

عادت تلك النظرة إلى عينيه، وعلّق: «كل العازفين وكل الآلات ستكون معك». سكتَ لبرهة قبل أن يضيف: «ستكون أغنية رائعة! بموسيقى كويتية جديدة».

«أريد للموسيقى أن تتخلل الأغنية، وأن تشاركني الغناء!».

«جميل، جميل!». ردد صوت نجيب بنشوة غريبة: «يُحسب لكَ أنكَ أدخلت الفرقة الموسيقية لفن الصوت».

«هذا مُراد كبير سعيت إليه».

أجرينا أكثر من «بروفة» للأغنية، وفي كل مرة كانت تولد إضافة مني أو من نجيب أو حتى من عازف القانون غنيمة. الذي قال لي: «في الأغنية شجنٌ كبير، وطبقة قرار صوتك العميق خير من يعبّر عنه!».

حين اتفقنا على التسجيل، ظلت فكرة واحدة شاخصة برأسي، ولكي أفصح عنها، تمنّيت على الأستاذ نجيب: «أريد للعازفين أن يعزفوا اللحن حفظًا من قلوبهم، دون أن تكون أوراق النوتة أمامهم».

وكم أفرحني ردّه: «العازفون حفظوا اللحن، وسنكون بانتظارك صباح الغد».

* * *

متى سيأتي الصباح؟ ليس سوى الريح المجنونة في الخارج.

لا أدري لماذا بدأ شيء من الخوف يحوم حولي. ربما لضعف أنفاس عوض، وربما لأنه صار يغيب

وإغماضة عينيه فلا أعلم إن كان واعيًا أو نائمًا.

لم يبقَ لي في علبة السجائر الثالثة إلا بعض سجائر.. الليلة دخنت ثلاث علب!

أذكر يوم كنا معًا في إحدى حفلات سمر البر، لحظة اكتشف عوض أن سجائره قد نفدت. طلب مني علبة. ولحظة دخّن سيجارة بتلذذ، التفتَ يخبرني: «مُتَعي في الحياة قليلة، والسيجارة حبيبتي!».

أنا والسيجارة وتلاوة القرآن.

تصوّرت أن الأهل ناموا، لكن خالتي دخلت عليَّ قبل قليل سائلة: «شلون عوض؟».

التقت نظراتنا. تمنّيت لو لديّ إجابة تُريح قلبها. قلت: «الحمد لله».

وقفتْ أمامه. أخبرتني أن أم فهمي وأم بدر وفهمي الجميع مستيقظ، وليس لهم إلا القرآن والدعاء.

«لازم ننقله إلى المستشفى». قالت.

«أول الصباح بإذن الله».

طالعت هي ولدها الممدد لبرهة، قبل أن تخرج بدمعها.

أنظر إلى عوض، ودُعائي: ربي يرأف بحالك يا خوي!

* * *

لا يمكن أن أنسى أول تسجيل في الإذاعة. خرجت من بيتي حاملًا عودي ويوسف يُرافقني، وكلي حلم بأغنية تقدّمني وتكون بداية مشواري، فاتحةَ خيرٍ عليَّ. ولهذا رحت أردد بقلبي كلمات الشاعر سعيد بن أحمد البوسعيدي:

يا من هواه أعزّه وأذلّني

كيف السبيل إلى وصالك دلني

أنتَ الذي حلّفتني وحلفتَ لي

وحلفتَ أنك لا تخون فخنتني

وحلفتَ أنكَ لا تميل مع الهوى

أين اليمين وأين ما عاهدتني

ولأقعدن على الطريق وأشتكى

وأقول مظلوم وأنت ظلمتني

حين وصلت إلى مبنى الإذاعة لحقت رجفة صغيرة بي. ولا أدري لماذا تذكّرت عبارة أبي «عوض سيكون مطربًا».

وصلت إلى الفرقة، فوجدت أن الجميع مستعد، وكل عازف يحتضن آلته. شعور غريب انتابني؛ جميع الموسيقيين سيتعاونون لإنجاحي بأغنيتي.. عادت تلك الرجفة الصغيرة لتعبر بي.

طلب مني الأستاذ نجيب: «سنُجري بروفة أخيرة».

بدأت الفرقة تعزف وأنفاسي تتعلق بحركة ورنة ونغمة كل آلة.. بعد البروفة.. ساد هدوء مفاجئ، ووحده صوت نجيب يخاطب الفرقة: «هذه أغنية كويتية، يعرفها أهل الخليج، لكننا سنكتب تاريخًا موسيقيًّا جديدًا لها مع الأخ عوض، وسنُقدّمها بشكل لم يسبقنا إليه أحد»، ويلتفت يخاطبني: «أخ عوض، توكلنا على الله».

ونعم بالله! قلتُ بقلبي، وأخذت مكاني أمام الفرقة، ومع انطلاق أول نغمة من القانون، رفعت رأسي فرأيت وجه صاحبي قد ملأ المكان! كان باسمًا، وكان سعيدًا، وهُيّئ لي كأني سمعته يقول: «أَطرِب يا عوض، أَطرِب!». لحظتها غاب كل شيء، ومسّت رجفة صغيرة قلبي.. تشربت اللحن الجديد، بعزف الفرقة خلفي، وانطلق صوتي بمحبّات روحي وآلامها:

يا من هواه أعزّه وأذلني كيف السبيل إلى وصالك دلني

لحظة انتهت الأغنية، وتوقفت الفرقة الموسيقية، هدأ شيء في روحي، ونهض نجيب ليقول لي: «مبروك، مبروك». جاءت

تلك النظرة لعينيه، فقال لي: «خامة صوتك نادرة وخاصةً القرار، وأنا معجب بغنائك».

أفرحت روحي كلماتُه، ولم أستطع إلا أن أقبّله بامتناني ومحبتي. لكنه فاجأني بسؤاله: «أنتَ أعدت تلحين هذه الأغنية على طريقتك، فهل سبق أن اخترت مقامًا معينًا لشعر ما، ثم عدلت عن ذلك واستبدلت به مقامًا آخر؟».

سكتُّ ناظرًا إليه، قبل أن أردّ: «أخي نجيب، أنتَ تعلم أكثر مني؛ الأمر لا يؤخذ بهذا الشكل، إنما يتحكم فيه الإحساس والشعور برنة الكلمات في الشعر، وبالنسبة إليَّ أول خطوة في التلحين هي قراءة الشعر وتفهمه والإحساس بمعانيه فأنا عاشق للشعر، ثم تأتي الخطوة الثانية وهي الشروع في اختيار المقام، أو الدخول مباشرةً بعملية التلحين دون النظر إلى نوع المقام الذي يتبين نوعه عندما أنتهي من وضع اللحن».

ظل نجيب ينظر إليَّ، ولا يمكن أن أنسى جملته: «فهمك هذا خلق لحنًا عجيبًا لقصيدة جميلة».

تدخّل صديقي حمد المؤمن وأضاف: «أحسنت! أدّيت الأغنية بإحساس عالٍ، وبلحن جديد لم يسبق لي أن سمعتها به!».

«الحمد لله».

«ربما تُذاع الأغنية غدًا». علّق حمد.

بسعادة رددت عليه: «لأنه لحني، اسمح لي، سآخُذ التسجيل معي، أسمعه وحدي في البيت، وربما أمسّه بشيء من التغيير، وحين أطمئن تمامًا سأعود به للإذاعة». وهذا ما حدث مع جميع الأغنيات التي لحّنتها وغنّيتها. أسمعها مرة وثانية وعاشرة، وأغيّر شيئًا صغيرًا هنا أو هناك، وأعيد التسجيل، ولا أغنّيها إلا بعد التأكد من أن اللحن يحمل ما أريد توصيله.

الله! ها هو أبي، رجع ثانية يقف قرب الروشنة ينظر إليَّ ويُكلمني: «يا ولدي سنلتقي بعد...».

بعد ماذا يا أبي؟ أسرعتُ أسأله لكنه بقي ساكتًا بحزن وجهه!

كأني بأبي يريد شيئًا مني وهو يضيف كل مرة كلمة إلى جُملته!

telegram
@yasmeenbook

مشهد ثامن

رجاءً، غنُّوا من قلوبِكم!

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١٢:٣٥ صباحًا

مثل السحر انتشرت أغنية «يا من هواه أعزّه وأذلّني» بين أهل الكويت! فما إن انطلقت من الإذاعة حتى صارت حديث الناس، وصار اسمي يقفز مُتنقّلًا من شاب إلى شاب، ومن ديوان إلى ديوان، ومن بيت إلى آخر، وصار الجميع يردد «عوض دوخي!»، والجميع يردد «مطرب جديد!»، وكم أفرحني سماع عبارة «يُغني بأسلوب جديد!». شعرتُ أن هذه الأغنية عوّضتني عن كل آلامي وتعبي، وأنها أوصلتني إلى المستمعين بأفضل صورة. وأنها ستكون بداية الخير الذي منَّ الله به عليَّ!

* * *

ينفتح الباب. تعود خالتي وتأثر وجهها.. تلتقي نظراتنا، أنهض أنا، فتقعد على الأرض تمدّ يدها لجبهة ولدها، وما تلبث أن تتنهّد: «يا حسرة قلبي..».

«هل تحبّين أن أتصل بالمستشفى الآن؟».

خاطبتها، لكن جملتي لم تحرّكها. ظلت ساكتة وقد خيّم حزنٌ ثقيل على وجهها.

عوض في هدأة روحه.. بالكاد يفتح عينيه. أسرعتُ أنبّه خالتي: «فتح عينيه!».

ولا أدري لماذا انفجرَت ببكائها.

«خالتي، اذكري الله..».

وكما المرة الماضية، جاء يوسف راكضًا. ولأن «عوض» كان لم يزل فاتحًا عينيه، خاطب أمه: «يا أمي، الله يسامحك! والله سأموت.. كل مرة أخاف من سماع..». ولم يكمل جملته، غصَّ بعبرته.

وكما لو أن خالتي رأفت بحاله، نهضت تحتضنه، وتخرج به من الغرفة.

أتمنى ألا يشعر عوض بحزننا.

طوال صداقتنا، وفي أكثر من موقف ظل يردد عليَّ: «الفرح أجمل بين الأهل!».

لم أرَه سعيدًا كما في تلك الدعوة.. جمعنا كلنا، أسرته وإخوته وزوجاتهم وأبناءهم وأهله وأقاربه في مأدبة غداء كبيرة في بيته، قال بفرح غامر: «هذه دعوة غداء أغنيتي الأولى في إذاعة الكويت، وهذه بركة «يا من هواه»، وهذه فرحتي معكم!».

يومها كل ما فيه كان سعيدًا، وأذكر أن يوسف قال: «أهل الكويت كلّهم يتكلّمون عن عوض!». وأضاف: «الإذاعة حملته إلى المستمعين خارج الكويت، وصوته ما شاء الله يلعلع! وإذاعة الأغنية لا تتوقف!».

يومها قال عوض: «هذه الأغنية بداية الطريق، وإن شاء الله سأكمل بأغانٍ كثيرة!».

* * *

أغنية «يا منّ هواه» كانت بداية علاقتي الوطيدة بالأستاذ نجيب رزق، وكنتُ أردد في نفسي بإعجاب واحترامٍ كبيرين: «يكفي أنه عزف خلف أم كلثوم». وكم اختلست النظر إليه، أقرأ ما تقول نظرته من خلف نظّاراته. وأذكر أنه قابلني في الأسبوع التالي لتسجيل الأغنية فسألني: «ما أغنيتك الجديدة؟».

ابتسمت له، فلم أكن قد فارقت فرحي بأغنية «يا من هواه»، ولا كنتُ قد فكّرت في أغنية تالية، لكنه سألني: «هل تعرف ماذا يقول الإمام علي كرّم الله وجهه؟».

بقيت أنظر إليه، وفتر لساني عن: «لا». وبصوتٍ رخيم راح يردد:

إِذا هَبَّت رِياحُكَ فَاغتَنِمها ... فَعُقبى كُلُّ خافِقَةٍ سُكونُ
وَلا تَغفُل عَنِ الإِحسانِ فيها ... فَما تَدري السُّكونُ مَتى يَكونُ
وَإِن دَرَّت نِياقُكَ فَاحتَلِبها ... فَما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ
إِذا ظَفِرَت يَداكَ فَلا تقصِّر ... فَإِنَّ الدَّهرَ عادَتَهُ يَخونُ

«جهّز حالك لأغنية جديدة». عاد يحثّني، ولا أدري كيف قلت له: «أنا أغنّي للسيدة أم كلثوم».

رأيت نظرة غريبة التمعت في عينيه وحماسه: «سمّعني!».

كنا معًا، وبعض أعضاء فرقة الموسيقى من حولنا: «غَنِّ، غَنِّ، سمّعني».

بلعت ريقي، ورحت أغنّي: «على بلدِ المحبوب ودّيني..».

أسرع نجيب يصرخ بي: «لحظة، لحظة، تعرف دي ألحان مين؟».

«الأستاذ رياض السنباطي، وكاتب الكلمات الشاعر أحمد رامي».

«لحظة..»، التفتَ نجيب، وكان صديقي المطرب سعود الراشد حاضرًا، فأشار إليه: «العود، العود»، وأحمد علي عازف الكمان، وضارب الرق، في حين أمسك هو بكمانه: «يلا، يلا، كُلنا مع عوض».

أغمضتُ عينيَّ، وأطلقت عشقي لأم كلثوم بصوتي:

على بلدِ المحبوب ودّيني	زاد وجدي والبعد كاويني
يا حبيبي أنا قلبي معاك	طول ليلي سهران وياك
تتمنى عيني رؤياك	أشكي لك وأنت تواسيني
يا هنايا لما أفرح بيك	وأتهنّا بقربك وأناجيك
وعينيَّ تبقى في عنيك	أحكي لك وأنت تراعيني
يا مسافر على بحر النيل	أنا ليَّ في مصر خليل
من حبه مابنام الليل	على بلدِ المحبوب ودّيني

غنائي لهذه الأغنية ربطني بعلاقة خاصة مع الأستاذ نجيب ستكون زادي طوال مشواري معه، وستكون سبيلًا لأكثر من عمل مشترك في تلحين أكثر من أغنية. فما إن انتهيت من الغناء،

حتى صرخ بي ولمعة إعجاب تملأ عينيه: «إيه دا؟ أنتَ هايل، وإحساسك بالمغنى فظيع!». وسكت لبرهة ليضيف: «تغني الست بشكل خليجي لم أسمع مثله من قبل!».

حين عدت إلى البيت، وأخبرت يوسف بما حدث، لاح شيءٌ من عدم الرضا على نظرته، قال: «غنِّ كويتي أحسن!».

«هذه أم كلثوم العظيمة!».

«لا أتكلّم عن أم كلثوم، بل الغناء الشرقي، دع الناس تتعرف عليك كمطرب كويتي».

تفهّمت رأيه، لكن سيبقى هذا سبب خلافٍ خفي ومتجدد بيننا!

* * *

صار وجودي في الإذاعة مع الفرقة الموسيقية، هو عالمي اليومي بسلوتي الأحب، وقد قلت لصديقي حمد: «تسمح لي بالحضور بين أعضاء الفرقة؟».

نظر إليَّ مُبتسمًا: «بشرط». رحتُ أنتظرُ شرطه، فأوضح: «أن تسجّل معنا أغنيات جديدة».

«أكيد، أكيد».

تلك هي الفترة الأجمل في حياتي! عشت والغناء ليلَ نهارَ. فرقة موسيقية وأصدقاء، وبحث وغناء وإعادة

تلحين وتجديد ومناقشات وحوارات لا تنتهي. ولا يمكن أن أنسى تلك اللحظة، فلقد كنتُ أجرب أغنية مع الفرقة ومرَّ حمد

مصطحبًا شخصًا لا أعرفه يرتدي بنطلونًا وجاكيتًا. توقّفا يستمعان إلينا، وما إن انتهيت حتى ارتفع صوت حمد مشجّعًا: «عاش بن دوخي، عاش..» ابتسمت له، لكن الرجل فاجأني يسأل: «أستاذ عوض، أي طريق تسلك لوضع اللحن، تختار المقام أولًا أو تدخل في وضع اللحن مباشرة؟».

رفعت وجهي إليه. رأيت نظرة سوءٍ في عينيه. استغربت تدخُّله، وكرهت طريقته في سؤاله، لكن دار ببالي ربما أراد أن يمتحنني أمام الفرقة وأمام صديقي، فكّرت في تجاهُله وأن أرد عليه بردٍّ قاسٍ.. لكني قلت له وشيء من الضيق بصوتي: «أنا في معظم الألحان عندما أنوي وضع لحن لشعر ما، أترك مشاعري وأحاسيسي تسبح مع الأنغام دون اعتراض مني. أساير تيار الأنغام حتى أصل إلى إتمام لحن الشعر، ثم أعود ثانية لِما وضعتُه من لحن وأعدّل إن كان هناك خلل في جزء معين في مسار اللحن، وأضيف ما يمكن إضافته من لزم موسيقية، وأخيرًا أتحسس الأنغام التي وضعتها لأكتشف أنني وضعت هذا اللحن من المقام الفلاني دون ترتيب سابق، كما أنه لم يسبق لي أن اخترت مقامًا ومن ثم عدلت عنه».

ظلت نظرة السوء تلك في عينيه فسألته وشيء من ضيق: «لديك سؤال ثانٍ؟». وكأن «حمد» استشعر انزعاجي من الرجل، فأسرع يردّ: «أحسنت، أحسنت!»، ومشى به مبتعدًا.

* * *

في تلك الفترة ظلت جملة «إذا هَبَّت رِياحُكَ فَاغتَنِمها» ترنّ في رأسي كل وقت، وكأن شيئًا كان يدفعني إلى إنجاز الكثير قبل مرضي!

انكببت أنا ويوسف للبحث في أغاني الصوت، وفي أنواع الغناء الكويتي والخليجي، ولا أدري كيف طرأت الفكرة برأسي: ماذا لو شارك «كورس» نسائي في أغنية فن الصوت؟ فغناء الصوت محسوب على الرجال، توارثه الفنانون كما هو. سألت أخي يوسف: «هل يمكن أن يدخل الكورس النسائي في غناء الصوت؟». راح ينظر إليَّ مستغربًا الفكرة، ولا أدري لماذا ابتسم، قبل أن يقول: «فكرة جديدة وعظيمة!».

حملت فكرتي للصديق الزنجباري، فنظر إليَّ بنظرته التي أحب، وبهدوء قال: «جميل، الكورس النسائي سيمنح فن الصوت لمسة عصرية ناعمة، وسيكون إضافة مهمة». وأكشف له عن عزمي: «سأغنّي مع الكورس النسائي الصوت بقصيدة الملك محمد بن أرسلان، قُل للمليحة».

«ونعم الاختيار!».

نقلتُ الفكرة إلى نجيب، فاستقبلها باهتمام بالغ، وطلب من الأستاذ حمد ترتيب الكورس. ولأنها فكرتي؛ فلقد تولّيت مهمة تحفيظ الكورس.. تولّى أخي يوسف وضع اللحن، ما لبثنا أن بدأنا في البروفات. كنا أنا ويوسف ونجيب والكورس معنا.

في كل مرة نعزف الأغنية يقترح أحدنا إضافةً أو ترتيبًا، وبتوافقنا وصلنا إلى اللحن على مقام الكرد، ومعتزًّا قال يوسف بفرح: «بالنسبة إلى فن الصوت، ربما هذا اللحن من أوائل الألحان الكويتية على مقام الكرد». وأضفت إلى قوله: «وهذه أول مشاركة للكورس النسائي في أغنية صوت..»، راح الجميع ينظر إليَّ فأكملت فكرتي: «لهذا أريد للأغنية أن تبدأ بصوت الكورس، وتاليًا موسيقى ثم أدخل أنا».

فأسرع نجيب يقول: «وهو كذلك!».

* * *

علّمني العيش أن الوقت يكتسب خفّةً حُلوةً حين يشتغل الإنسان بما يحب! فلم أكن أشعر بتعب، ولم أكن أنزل السيجارة من يدي، في حين تسكن الألحان رأسي وتُغنّي في قلبي ليل نهار.

يوم تسجيل صوت «قُل للمليحة»، خاطبت الفرقة: «إن شاء الله سنعزف اللحن أجمل ما يكون..». والتفتُّ إلى الكورس قائلًا: «هذه أغنيتكم.. ولي رجاء أن تغنّوا من قلوبكم!».

أخذت مكاني، عبرت بي للحظة تلك الرجفة الصديقة. وبإشارة من نجيب انطلق الإيقاع، ولحقت به «بوم» الكونترباص، وبهدوء سارت الموسيقى بحضور القانون والناي، وتعلّقت روحي بدخول الكورس، الذي ما لبث أن لحق مرددًا:

قُل للمليحة في الخمار الأحمرِ لا تَجهري بدمائِنا وتستّري

عاد اللحن والفرقة ليعزفا التمهيد لدخولي، ولحظتها أغمضت عيني، وملأ اللحن رأسي:

مكِّنتِ من حب القلوب ولايةً فملكتِها بتعسفٍ وتجبِّر

إن تنصفي فلك القلوب رعيةً أو تمنعي حقًا فمن ذا يجتري

سخّرتِني وسحرتِني بنوافثٍ فترفّقي بمسخِّر ومسحِّر

حين انتهت الأغنية، جاءني الزنجباري وصافحني بحرارة: «عظيم؛ هذه إضافة كبيرة إلى فن الصوت العربي!».

* * *

كأن أحدًا يفتح الباب، يدخل يوسف يجرّ ارتباكه بحزنه يسألني: «أما زال صاحيًا؟».

«كما ترى».

يقف ناظرًا لأخيه المُسجّى على فراشه، وبصمت لمعت دمعته على خده، وصوته: «عوض جزء من روحي، وأنا حاس أنه..».

أسرعت أقاطعه: «اذكر الله».

«لا إله إلا الله..». قال والتفت إليَّ: «رافقته في مرضه، لكني لم أشاهده كما الليلة!». عاد يختنق بعبرته.

«الأمل بالله». قلت، وأشير عليه: «تحب تجلس؟».

«لا، جميع الأهل مستيقظون، وكلهم سؤال وخوف».

«الله كريم..» رددت عليه. لاحت نظرة في عينيه أخافتني. شعرت به يودّ لو يقول شيئًا، لكنه تنهّد واستدار خارجًا.

هذه ليلة طويلة.. الطبيب قال: لا داعي إلى نقله إلى المستشفى! ربي يكون في عونك يا عوض! لا أدري ما الذي يتراءى لك!

* * *

لا أدري إلى متى سيبقى صاحبي مُعرِضًا عني!

أحيانًا أراه وحده، ومرات يتراءى لي كأني أرى بعض أهلي وأصدقائي إلى جانبه.

لا أدري لماذا حضر الليلة! ولا أعلم لماذا يصرّ على تجاهل النظر إليَّ! يؤلم روحي صدُّه!

سيرتاح قلبي لو تلاقت نظراتنا!

منذ ولادتي وهو معي.. تهدأ روحي لرؤيته.

أمي كانت تردد: «الدنيا حظوظ». وكلما سألتها: «لماذا تقولين ذلك؟». تُجيب دون أن تنظر إليَّ: «إذا قام حظّك باع لك واشترى لك!». وكنتُ أسأل بيني وبين نفسي: وإذا خمد حظّك؟

بعد أغنية «قُل للمليحة»، صرت آخُذ من الإذاعة مكافأة مطرب وملحّن ومحفّظ. وكنت أردد وقلبي: «الحمد لله».

وفي كل مرة أحثّ نفسي: «وحدها الروبيّة التي تُساعد بها الآخر، يبقى أجرها معك!».

أذكر يوم جاءني أحد موظفي الإذاعة ليخبرني: «الأستاذ حمد يريد حضورك». ولأني رحت أنظر إلى الرجل أضاف: «الآن لو سمحت».

أخي يوسف كان إلى جانبي فذهبنا معًا.

حين قابلنا حمد، بادر يوسف: «نريد أغنية وطنية لعيد الاستقلال». ولأن يوسف ظل ينظر إليه، أوضح: «الغناء معروف: الصوت، والسامري، والعرضة، لكن هذه المرة نريد أغنية تتغنى بالوطن، بالكويت، بالاستقلال، بالأمير، وبالشعب، وهذه ستكون أغنية وطنية».

كانت المرة الأولى التي يطلب حمد مثل هذه الأغنية.. كنا في يوم السبت ١٧ يونيو عام ألف وتسعمائة وواحد وستين. سألته: «متى تريدون الأغنية؟».

ردّ بنبرة حاسمة شعّت بنظرة عينيه: «الآن». استغربت كلمته، فأكّد لي: «يجب أن تُذاع بعد غد، في يوم إعلان استقلال الكويت».

لا أدري تمامًا ماذا حرّكت جملته تلك في قلبي، فجأة حضر وجه صاحبي يملأ المكان ونظرة واضحة تطلّ من عينيه، وأخاطب «حمد» قلت: «غدًا نأتي أنا ويوسف لعمل اللحن مع الفرقة».

التقت عيناي مع عينَيْ يوسف فخاطبته: «سنُغنّي لاستقلال الكويت».

ظل ساكتًا لبرهة قبل أن يردّ: «سنكتب أغنية وطنية رائعة».

لحظتها انتبهت إلى أنني لم أطلب من حمد أي كلمات أو قصيدة.

حين عدنا إلى البيت، خاطبني يوسف: «تعال نجلس لنكتب الكلمات».

كان الوقت ظهرًا، لكن جلستنا امتدّت، ولا أذكر إذا ما كنا قد تناولنا طعام الغداء أو العشاء، لكن ربما في العاشرة مساءً، كان يوسف قد فرغ من كتابة الكلمات:

الْفَجْرِ نَوَّرْ يَا سَلامْ يَا سَلامْ الْفَجْرِ نَوَّرْ

بانْ بِأَيَّامَه السَعيدَةْ يَا سَلامْ الْفَجْرِ نَوَّرْ

حين ابتسمت له بفرحي بادرني يقول: «اللحن عليك، ويجب أن يكون لحنًا يليق بالمناسبة».

وقتها كنت لم أزل مسكونًا بحضور الكورس في الأغنية. فدار ببالي أن الكورس في هذه الأغنية سيكون صوتًا معبّرًا عن مشاركة وفرح وغناء الشعب؛ لذا سهرت مع يوسف طوال الليل، أبحث عن لحنٍ مناسب.. دار ببالي أنه قد يكون من مقام الأوشار من السيكا.. بقينا بسهرنا وإلى حين رتبت اللحن.

قبل الظهر في اليوم التالي كنا في مكتب الصديق حمد، حين بادرته بفرحي: «الأغنية جاهزة».

«ونحن جاهزون».

بدأنا البروفات بوجود وتوجيهات الصديق نجيب، وأمضينا يوم الأحد في البروفات حتى المساء، وفي يوم الاثنين ١٩ يونيو، عام ألف وتسعمائة وواحد وستين، يوم إعلان استقلال الكويت، وكعادته نجيب أجرى البروفة النهائية، قبل أن يرفرف قلبي يغني لوطني:

الْفَجْرِ نَوَّرْ يَا سَلامْ يَا سَلامْ الْفَجْرِ نَوَّرْ
بانْ بِأَيّامَه السَّعيدَةْ يَا سَلامْ الْفَجْرِ نَوَّرْ
اهْتُفُوا وُقُولوا مَعَايا بُشْرَى بِأَيامْنَا الْجَدِيدَةْ
كُنَّا مَوْعُودِينْ بِاليَوْمِ السَّعيدْ
وِالْأَمَلْ مَعْقُودْ بِالْعَهْدِ الْجَديدْ
حَقَّقْ الآمالْ بِالرايْ السَديدْ
أَكْمَلنا الأمل وِالنَّصْرِ المَجيدْ
بانْ بِأَيامَهْ السَّعيدَةْ يَا سَلامْ الْفَجْرِ نَوَّرْ
يَا كُوَيْتِ الْيُومْ أَبطالِكْ جُنُودِكْ
شَعْبِكْ الصِّنْدِيدْ يِرْفَعْ لك بنودِكْ
خالِقْ الأَكْوانْ يَحْمِي لْك أُسودِكْ

يَا أَمِيرْنا نَدْعِي لِلمَوْلىٰ يُصُونِكْ
بَانْ بِأَيامَه السَعيدَة يَا سَلامْ الْفَجْرِ نَوَّرْ

سمع الناس الأغنية وأخذوا يرددون كلماتها، لكن اعتزازي الكبير وتشرّفي جاء لحظة أخبرني حمد: «كل يوم الساعة الرابعة عصرًا سنذيع أغنيتك!».

«كل يوم؟» سألته وابتسامتي.

«نعم كل يوم، فهذه تعليمات أمير الكويت صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم!».

شيء غريب مسَّ قلبي؛ أمير الكويت، الشيخ عبد الله السالم يأمر بإذاعة أغنيتي كل يوم! الحمد لله يا رب!

همست وقلبي وقد شملني فرح كبير واعتزاز لم أعرفه من قبل. وكان أن ظلت هذه الأغنية تُذاع أربع سنوات يوميًّا! وكان أن بدأت أسجّل أغاني كثيرة للإذاعة وأحضر حفلات كثيرة. ومع تسجيلات الإذاعة وتدفّق الخير عليَّ رحت أحتضن أسرتي، وصار لقاؤنا كل يوم على وجبة الغداء يحمل فرحًا لقلبي: أنا والوالدة وأم فهمي وأختي أم بدر وأخي يوسف وأبنائي.. لقائي اليومي بأحباب قلبي. أضحك مع هذا، وأقبّل هذا، ويطيب لي أن أسمع منهم كل ما يدور في خواطرهم عني وشغلي. وفي تلك الفترة امتد وصلي الأهم إلى أحبّتي في البحرين!

لكني لن أنسى لحظة دخلت عليَّ أم بدر فقرأت شيئًا في نظرتها. جلست إلى جانبي دون أن تُلقي السلام، فبادرتها بوُدٍّ: «وعليكم السلام».

ظلت ساكتة، فقلت لها: «قولي، آمّري..».

«ما تردني؟».

«ما عاش اللي يردّ أم بدر».

«يوسف قرأ عليَّ قصيدة جديدة».

رفَّ قلبي فخاطبتها: «حاضر لكِ وليوسف».

عاد البشرُ لوجهها الحبيب، فقلت لها: «أنتِ تأمرين!».

نهضت لتقبّلني، وكانت تلك الزيارة وتلك القبلة سببًا في ولادة أغنية «ردَّ قلبي».

حين التقيت يوسف أخبرني: «منذ مدة والكلمات في خاطري». وأضاف: «الكلمات عليَّ، واللحن عليك».

«اللحن على نجيب، والغناء عليَّ». رددت عليه.

حين قرأ نجيب الكلمات ظل ساكتًا، وبقيت أنتظرُ ردّه: «مَنْ كاتب الكلمات؟».

نظرت إلى يوسف فأجاب: «أنا».

عاد نجيب لسكوته، قبل أن يقول: «جميلة جدًّا، ذكّرتني بأحمد رامي!».

«أريد لحنًا منك..». طلبت من نجيب.

لم يكن متجاوبًا كعادته. لسببٍ ما تريّث في ردّه: «أحتاج إلى وقت».

«طبعًا». ردَّ يوسف عليه، وأضاف: «عوض يريد أغنية بمذاق كويتي عربي».

«معادلة صعبة». علّق نجيب.

«أنتَ عزفت خلف أم كلثوم، ولحنت أغاني..».

«أحتاج إلى وقت».

تركنا نجيب، وبعد أسبوع عدت إليه: «صباح الخير».

«صباح اللحن». قال ناظرًا إليَّ: «لأن القصيدة مؤثّرة، فيجب أن يكون اللحن بوزنها، ويجب أن ينتقل من «كوبليه» إلى آخر بشكل مختلف..». توقّف لثوانٍ قبل أن يُكمل: «في ذهني مقام شهناز من الحجاز، يمكن نجلس معًا، أنت على العود وأنا على الكمان، ونرى..».

«نبدأ الآن..».

حال جلسنا، بدأنا نُدندن معًا، ولحظة وصلت إلى شطر: «مرة ثانية في الخيال شفتك بكيت».. أمسكت بي عبرتي.

«ماذا بك؟». سألني نجيب، وأبلع بكائي قلت: «لا شيء».

حضر يوسف بروفات اللحن، وعلّق ببضع الملاحظات، وبخفق قلبي راح اللحن يتلوّن آخذًا رتمه بتنوّعاته. وكان نجيب مُقطّبًا يقف عند كل نقلة، يكرر: «هذا لحن مختلف!». وحين قال: «اللحن اكتمل». خفق قلبي، ومع أول بروفة، بوجود يوسف، وحين بدأتُ الغناء، ولحظة وصلت إلى عبارة: في الخيال شفتك بكيت، هجم البكاء عليَّ وسدّ بلعومي.. استغرب نجيب ويوسف وأعضاء الفرقة، وبقيت ساكتًا لا أدري ماذا أقول!

أعدنا اللحن، وظل البكاء في كل مرة يمسك ببلعومي ودموعي: «ماذا هناك؟». سألني يوسف، فبلعت بُكائي وقلت: «لا أدري».

ربما هو خيال صاحبي! ربما هو خيال أبي! ربما هو خيال أمي لحظة ودّعتُها على شاطئ البحر وأنا طفل!

صاحبي لا يريد النظر في وجهي الليلة.

يقف هناك يراقب ويستمع لهواجسي.

لا أدري لماذا ظل البكاء يلازمني، حتى كلّمني نجيب: «يحصل أن يتأثّر المطرب، ولكن صار يجب أن نُسجّل الأغنية، فالفرقة يجب أن تنتقل إلى أغاني مطربين ينتظرون..».

في يوم التسجيل، كنتُ مُشوَّشًا، أحاول إبعاد هاجس البكاء عني. وكعادته قال نجيب: «البروفة الأخيرة». لكني اعترضت: «لا داعي إلى البروفة، لنسجّل..».

ولأن «نجيب» خاف من معاودة البكاء وافق.. استعدَّت الفرقة، ولمحت نظرة لم أفهمها في عينَيْ يوسف. لكن لحظة بدأ العزف، بكمان نجيب الحزين المُترقّب، مباشرة دخلت أنا بصوتي.. كنتُ متعوّدًا مجيء صورة صاحبي، لكنه ظل غائبًا، ولحظتها دار ببالي أنني إنما أبكي شوقًا لرؤية صاحبي، رحت أغنّي:

لا تخاصمني يا آسرني في هواك
نظرة وحدة تكفي عن طولة جفاك
أنا أشقى وأنتَ ما تدري بعذابي
رُدَّ قلبي لا تخاصمني
مرة شفتك في حياتي وابتليت
مرة ثانية في الخيال شفتك بكيت
من دموعي زهرة العمر جنيت
وأنت مشغول بدلالك ما دريت
ضاع عمري حار أمري
أنا أشقى وأنتَ ما تدري بعذابي
رُدَّ قلبي لا تخاصمني
بين قلبي والعذاب أصبح غرام
ارتضى حُبك ولو كله آلام
أنا حبيتك بقلبي والهيام
زاد من حبك ومن كثر الملام

ضاع عمري حار أمري
أنا أشقى وأنتَ ما تدري بعذابي
رُدَّ قلبي لا تخاصمني
كنت تتسلى بحبي من جمالك
أنتَ تعرف كم أحبك من دلالك
ياما قلبي كان يتمنى وصالك
من دلالك من جمالك من فعالك من دلالك
ضاع عمري حار أمري
أنا أشقى وأنتَ ما تدري بعذابي
رُدَّ قلبي لا تخاصمني

حين انتهت الأغنية جاء يوسف يقبّلني: «عجيب، عجيب!».

ظل نجيب جالسًا في مقعده ممسكًا بالكمان. وحين نهضت أقصده ولحظة وصلت إليه وتلاقت نظراتنا قال: «هذا لحن روحي.. أشكرك».

الليلة روحي تعِبة.. دموعي تسكن عينيَّ، وصاحبي بصدّه يرفض النظر إليَّ!

* * *

خالتي دخلت. جلست قرب رأس عوض. وصامتة راحت تحتضنه ببكائها.

ربي يعلم؛ لا أدري إن كان عوض واعيًا أم لا..

أشعر بشيء يُخيفُني.. كأن عواء الريح سكنَ قليلًا.

ربما هدأت الريح بعد أن أحضرت..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

الحمد الله تلاوة القرآن تملأ الغرفة. لكن أنفاس عوض بدأت تُخيفني!

* * *

«الدنيا حظوظ». هكذا ظلت أمي تردد أمامي.

مع إذاعة أغنية «رُدَّ قلبي». انتشر اسمي مع الهواء. طار عاليًا يرفرف في سماء الكويت والخليج.. صار لي حضور جديد بين المستمعين، ونظرة إعجاب جديدة كنتُ أقرؤها في عيون ووجوه مَن أقابل! وقلّما مرَّ يومٌ دون أن تبث الإذاعة أغنية لي.

كنتُ في بيتي حين اتصل بي صديقي حمد: «الشيخ جابر العلي، طلبك».

استغربت وأكبرت الطلب، وسألت مُتأكّدًا: «وزير الإرشاد والأنباء؟».

«نعم».

استوقفتني نبرة حمد، انتظرته يفصح عن أي شيء، فقال: «لا أعرف ماذا يريد، اتصل بي مدير مكتبه وبلّغني: الشيخ يطلب عوض دوخي».

اغتسلت ولبست دشداشة مكوية وغترتي وعقالي، وتبخّرت وتعطّرت، وأخذت «البشت» تحت إبطي، سألتني أم فهمي: «خيرًا، آخذ العباءة؟».

«الشيخ جابر العلي وزير الإرشاد والأنباء طالبني».

«عسى ربي يوفقك».

كانت المرة الأولى التي نتقابل فيها. دخلت مكتبه فشملتني رائحة بخور تعشش في المكان. نهض بهيبة واضحة من خلف مكتبه، ووقف مُبتسمًا يستقبلني ويُسلِّم عليَّ. صافحني قائلًا: «يا هلا نوخذة!».

فاجأتني عبارته. قرأت ودًّا جليًّا في نظرة عينيه، فقلت: «هلا فيك طويل العمر».

«يا هلا بالمطرب!».

مسَّتْني جملته بنظرةِ مَحبَّة ووُدّ أراحت قلبي.

«أعرف أنك اشتغلت في البحر منذ صغرك، وغنّيت أيضًا».

«صحيح، طال عمرك».

«جدك ووالدك نهّامان، وخالك نهّام، وأنت مطرب، لازم تنهم مثلهم».

تحدّثنا عن أمور كثيرة في الفن والغناء، وكانت دهشتي كبيرة بأن شيخ بمهام كثيرة ومتنوّعة يعرف الكثير الكثير عن تاريخ وتراث

الفن الكويتي، وأنواع الغناء، وأسماء الفرق والمطربين، وأنه يحب الفن والفنانين. مرّت لحظة هدوء قبل أن يسألني: «أين تعمل؟».

تلاقت نظراتنا، فقلت بشيء من حرج: «الجمارك، قسم المنافيست».

أسرع لوجهه شيء من انزعاج، وعلّق: «مطرب يشتغل في الجمارك؟».

كنتُ سأقول.. لكنه سبقني قائلًا بنبرة حاسمة: «الآن، تُحوَّل أوراقك لتكون موظفًا في وزارة الإعلام». ومدَّ يده آخذًا سماعة التليفون، كلّم مدير مكتبه: «الآن يُنقَل دوخي للعمل في الوزارة عندنا».

«ربي يطوّل عمرك». لهج لساني بالدعاء، لكنه أكمل يقول: «تشتغل في الفن، هذا مكانك الصحيح».

عادت تلك النظرة المحبّة لعينيه، ومنذ تلك اللحظة ربطتني علاقة إنسانية كريمة مع الشيخ جابر، أنا وأخي يوسف، وكان سندنا ومُنقذنا في كثير من المواقف الصعبة.

رُدَّ قلبي، كانت طريق وصلي بأم كلثوم. فلقد صادف مرور صديقي الكمنجاتي أحمد علي للسلام قبل سفره إلى القاهرة، ولا أدري كيف سألته: «ستُقابل السيدة أم كلثوم؟».

«طبعًا».

«ممكن مساعدة؟».

أعطيت أحمد بعض تسجيلاتي لأغاني الست، وكذلك تسجيل أغنية ردَّ قلبي: «أرجو أن تسلّم على الست، وتنقل إليها هذه التسجيلات، وأتمنى أن تستمع إليها».

ما هذا؟ يا ألله! ها هي الست تأتي لتقف هناك إلى جانب صاحبي.

يجب أن أنهض لأسلم عليها. كأنها شعرت بتعبي.. تأتي لتسلّم عليَّ: «مساء الخير يا عوض».

«مساء النور، أهلًا بالست أم كلثوم.. تفضّلي، تفضّلي..».

هي واقفة تنظر إليَّ من خلف نظارتها.

في ذلك اليوم، حين أخذ أحمد التسجيلات، تركني في غرفتي، فجأة رأيت وجه صاحبي يرتسم أمامي، وخُيّل إليَّ أني أسمعه يقول: «ستسمعك أم كلثوم!».

آلاف البشر سمعوا غنائي، لكن سماع أم كلثوم بوزن مختلف! آلاف رددوا بطرب كلمات أغنياتي. لكن هل ستُردد أم كلثوم شيئًا من غنائي؟ كرر عليَّ صاحبي: «أم كلثوم ستسمعك!».

لم أخبر يوسف ولا أحدًا عن هواجسي بما ستقوله أم كلثوم عني. لكن حين عاد أحمد، ولحظة دخل مكتبي، خفق قلبي.. رفرفت نظرة في عينيه. سلّم عليَّ، وجلس بوجه باسم: «الست تسلّم عليك».

«أم كلثوم تسلّم عليَّ!».

«نعم، ولقد سمعت غناءك، وتقول صوتك عذب، وفيه إحساس عالٍ جدًّا!».

استمر لقاؤنا، وطلبت منه أن يعيد كلماته. ويومها اتصلت بأخي يوسف، وأخبرته: «سأسافر إلى القاهرة للقاء السيدة أم كلثوم».

ظل ساكتًا، قبل أن يقول: «ضروري».

ما فهمت قصده من كلمته، ولأنه يوسف، ولأنه أخي الذي يفهم نظراتي أوضح: «ضروري لأنها السيدة أم كلثوم. وضروري لأنها قمة الطرب والموسيقى العربية، وضروري لأنك عاشق لصوتها، وأنك غنّيت لها منذ بداياتك، كما أنك صرت مطربًا مشهورًا، ولا بد أن تتعرف وتتواصل مع المطربين العرب».

أذكر ذلك، سافرت إلى القاهرة.. أحمد علي، الذي عزف بكمانه في فرقة أم كلثوم، رتّب اللقاء.. كانت تُجري بروفات لإحدى أغنياتها في «شركة مصر فون»، جلستُ صامتًا أراقب هذه السيدة التي طالما حلمت بلقائها. دار ببالي؛ هذه السيدة العظيمة هي صوت مصر! وتساءلت: كيف يحوّل الفن الإنسان ليكون أسطورة! ها هي سيدة الغناء العربي؛ امرأة من دم ولحم. امرأة لكنها ليست ككل النساء. امرأة، لكن بوزن نساء مصر.. ها هي صوت القاهرة والعرب، ها هي المرأة التي تجاوزت بحنجرتها

وصوتها وأغانيها مطربي عصرها. هذا هو الصوت عينه الذي احتل وشغل عليَّ طفولتي وأحلامي. هذا الصوت الذي قلّدته وشهقت روحي بألحانه. هذا وهذه، وهذه وهذا.

جلست لا أدري كيف أحاطت بي الأفكار والصور.. كانت أم كلثوم تصدح أمامي تؤدي بروفة أغنيتها مع الفرقة الموسيقية. وكنتُ قد أخذت معي مصوّرًا كي يوثّق لقائي الأول بها. حين انتهت، تقدّمت منها. تلاقت عيناي مع نظرة عينها فرأيت شواطئ النيل وقصص حبّها بآهاتها. سلّمت عليها، تصافحنا، وكم هزَّ روحي لحظة سمعتها تقول: «أستاذ عوض، أهلًا وسهلًا. أهلًا وسهلًا بالكويت..».

أخبرتني أنها استمعت لغنائي: «أعجبتني أغنية رُدَّ قلبي، أغنية مؤثّرة..».

كنتُ أستمع إليها بفرحي وخفق قلبي، ولا يمكن أن أنسى جملتها: «قليلون جدًّا مَنْ أحب أن أسمعهم يؤدّون أغانيّ، وأنت أحدهم..».

«هذا شرف لي». قاطعتها، فأكملت: «أنت تغني أغانيّ بإحساسٍ عميق ومرهف لا يشوّه الأغنية، وبشكل خليجي أحببته!».

لحظتها تمنّيت لو كان يوسف إلى جانبي، ليسمع رأي الست أم كلثوم فيما أغنّي لها. وأكملَت تقول: «أنت عندك طبقة صوت ممتازة.. عندك «قرار» عظيم!».

عبّرتُ لها عن فرحي بلقائها وتشرُّفي بكلماتها: «هذا يوم عزيز على نفسي».

«عوض..». قاطعتني ناظرة إليَّ قبل أن تقول: «نبرة صوتك في الكلام والغناء واحدة».

هزّت قلبي جملتها، فأضافت: «أنتَ تغني مثلما تتكلم!».

يومَها تحدّثنا في أكثر من شأن، وودّعتُها وأنا أكاد أطير بفَرحي!

* * *

مشهد تاسع

صوت الكورس؛ صوت الناس

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ١٢:٥٦ صباحًا

الساعة قاربت الواحدة والنصف.. حال تشرق الشمس ننقل «عوض» إلى المستشفى. بقاؤه هنا لن يساعده.

بالكاد يسحب أنفاسه. لولا أنني أراه يغمض عينيه ويفتحهما لقلت لا قدّر الله إنه..

لا حول ولا قوة إلا بالله..

سجائري أوشكت أن تنفد. سأنتظر إلى حين تفتح البقالة القريبة من البيت ليأتي فهمي لي بعلب جديدة.

كلانا أنا وعوض تعلّقنا بالسجائر! صاحبته مرة لكشف في المستشفى. فبادر هو يسأل الطبيب: «هل أستطيع التدخين؟».

«لا مانع من سيجارة».

تبسّم عوض، وردَّ مُعلّقًا: «السيجارة تعني لي علبة».

ظل الطبيب ساكتًا. كنتُ أتوقّعه أنْ يعترض لكنه سأل «عوض»: «السيجارة تُمتعك؟».

«كثيرًا!».

«دخّن».

«إذا دخّنت فسأموت؟». ارتفع صوت عوض بسؤاله المخيف.

«الموت بيد الله. قد تصدمني سيارة وأموت بعد نصف ساعة حال خروجي من المستشفى». ردَّ الطبيب، واستدار ليغادر الغرفة.

الآن أفهم ردّ الطبيب. كان يدرك أن أيام عوض قليلة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

لا أدري متى سكت المسجل، لأنهض أعيد تشغيله. ليس لنا إلا كلام الله.

* * *

إذا هبّت رياحك فاغتنمها! ظلت تلك الجملة تلوح لي طوال الوقت، وأنا أرى نفسي أركض في تسجيل الأغاني، وفي حضور الحفلات ومجالس الطرب والسفر. صار اسم عوض دوخي يسبقني إلى كل مكان أصل إليه. وفي تلك الفترة ابتعد عني وجه صاحبي، وكأنه يقول: ما عدت تحتاج إليَّ! زادت جلساتنا أنا ويوسف وحواراتنا ونقاشاتنا حول تطوير أغنية التراث الكويتية، وتقديمها بشكل جديد، وكنا أحيانًا نشرك معنا أعضاء الفرقة الموسيقية، وعلى الأخص الأستاذ نجيب والأستاذ رضا غنيمة، وأحيانًا أخرى الصديق الزنجباري.

أذكر أن شخصًا سأل عني في الإذاعة، وحين لقيته سلّم عليَّ قائلًا: «لك دعوة كريمة من البحرين من الشيخ

الشاعر أحمد بن محمد آل خليفة».

«بكل سرور».

فَرِحْتُ بهذه الدعوة، فلقد تعلّق قلبي طوال طفولتي وشبابي بصوت محمد بن فارس وضاحي بن وليد، وكلاهما من البحرين.. بحماسةٍ بدأتُ أرتب أموري للسفر، وقد دار ببالي: ربما تكون هناك صلة قرابة بين الشيخ الشاعر وبين محمد بن فارس، الرمز الموسيقي الكبير الذي عشقت.

سافرت إلى البحرين والتقيت الصديق «إبراهيم كانو» مدير الإذاعة، وأذكر أنه أخذني عصرًا، حيث جلسنا في مقهى «السلمانية». وهناك التقيت الشيخ أحمد، ومنذ اللحظة الأولى لاحت في عينيه نظرة محبّة. أسَرَني بودّه ولطفه وكرمه: «يا هلا.. يا هلا بصاحب الصوت الرخيم».

فاجأني أنه قد استمع لمعظم ما غنّيت: «أنتَ المطرب الذي لفت نظري في طريقة غنائك لفن الصوت، خاصة وأنك تُغنّي بطريقة ولد عمي محمد بن فارس».

خفق قلبي حين علمت بقرابته لمحمد، وأكمل يقول: «ستكون لنا جلسات كثيرة حول فن الصوت، والطريقة التي يؤديها محمد!».

«أنا مستعد منذ هذه اللحظة».

لاحظت أن للشيخ نظرة عين لطيفة تمسُّ قلبي. كان ينظر إليَّ حين يقول جملته، ويسكت لثوانٍ بنظرته وكأنه يتأكد من سماعي لها.. جلسات كثيرة جمعتني به. اكتشفت أنه شاعر وحافظة شعر،

وأنه رجل موسيقيّ من الطراز الأول، وأنه بحر شاسع من العلم بفن الصوت. راح يشرح لي كيف نشأ فن الصوت في الخليج، وتاريخ الأسطوانات المسجّلة، ولماذا يُعزف بآلة عود ومرواس وكمان، وعن لحظة انسجام وتلاحم المطرب باللحن، وأثر التصفيق وشربكة الأكف في روح الأغنية. كنا نمضي الساعات، في حين هو يشرح لي أسرار فن الصوت، وكنت أستمع بكلّي وفرح قلبي، وأتجاوب معه.

أذكر حين قال لي: «مشكور أخي عوض».

استغربت جملته، فلقد كان هو المضيف المتفضّل، وكان حريصًا ودقيقًا في نقل المعلومات الموثّقة إليَّ، لكنه أوضح: «كنتَ أفضل بكثير مما تصوّرتك، تصغي بمحبة، وتسأل بذكاء واهتمام، وتُغنّي كأجمل ما يكون، دون أي مللٍ أو تبرّم!».

علاقة إنسانية ربطتني بالشيخ أحمد. هو مَنْ زرع وسقى حب البحرين في قلبي! حتى إنني بكيت لحظة ودّعته في المطار. ولأنه كان ينظر إليَّ خاطبته بمحبّتي: «يا ليت ما عرفتكم.. صعب فراقكم!».

* * *

أخبرت يوسف عما دار بين الشيخ وبيني فسعد بذلك، وطلب مرافقتي في رحلاتي التالية، لكنه لم ينسَ كعادته أن يُذكّرني: «لا تنسَ غناءك، جدّد في كل لون!».

سفرات وسفرات وسفرات، جلسات وسمرات وجلسات.. صارت البحرين لي مثل الكويت، آخُذ مجموعتي من العازفين الذين يعرفون ألحاني وعزفي وغنائي معي ونسافر.. كوّنت صداقات مع الشعراء والمطربين والعازفين، وتعرّفت على الشيخ عيسى بن راشد آل خليفة، في حين ظل الشيخ أحمد، يحتويني بضيافته وكرمه ونظرة عينيه الودود. يردد أمام الجميع: «عوض الصوت الأجمل في فن الصوت، وخليفة محمد بن فارس بنسخته العصرية!». ولا يمكن أن أنسى جملته: «توارى فن الصوت، وتوقف عند بن فارس وابن وليد، لكن صوت عوض وأداءه أحياه، وقدّماه كأجمل ما يكون!».

استشعرت متعة السفر، وكنت لا أبخل بالتسجيل في البحرين في كل وقت، حتى صارت لي تسجيلات كثيرة لديهم.. فحين عدتُ من رحلة علاجي الأولى في لندن، وتفضّل الشيخ جابر العلي، وزير الإعلام بإعطاء الأمر لعمل حفل كبير لي بمشاركة أصدقائي من الفنانين والفرق الأهلية، وما كادت الحفلة تنتهي حتى جاءني اتصال بدعوة كريمة من الشيخ عيسى بن راشد آل خليفة لزيارة البحرين، وتقديم وتسجيل أغانٍ جديدة!

* * *

يا أللـه سترك، صار عوض يغيب عني.

بالكاد يسحب أنفاسه.. ويفزّ قلبي حين يفتح عينيه ناظرًا إليَّ.

عاد دويّ النعاس يطنُّ في رأسي. سأشرب كأس ماء، وأدخّن سيجارة.

* * *

صرت أهمل عملي، وأتردد إلى الإذاعة أكثر مما أتردد إلى بيتي، وأذكر حين طلب مني صديقي حمد: «نريد أغنية للعيد».

يومها عدتُ إلى البيت أفكّر في أغنية تُناسب فرحة العيد. قابلت يوسف على وجبة الغداء وأخبرته بطلب حمد، سكت للحظات قبل أن يقول: «عندي فكرة».

رحت أنظر إليه، فبادرني: «تذكر الأغنية التي نسمعها منذ كنا أطفالًا؟».

«الأغاني كثيرة».

«أغنية العيد.. حسّ السهارى يوم مرّوا عليَّ عصرية العيد.. نوّخ ذلوله وقام يبكي عليَّ والدمع همّال..».

بقيت أنظر إليه وقد دبَّت الحماسة لصوته: «المطلع قديم، غنّته الخالة عودة، وسعادة البريكي، وعواد سالم بطريقة «الردحة» أو «العاشوري»، وأنا أحب الأغنية وأتمنى تقديمها بشكل جديد». فاجأني، وأكمل: «أنا وأنت نعيد كتابة الكلمات..».

«نلعب بتراث الكويت؟».

«بل نعيد تقديمه بشكل جديد».

طربت روحي لفكرة أخي، لكنها أخافتني.. لحنٌ تغنّى به وحفظه أهل الكويت، كيف أُفاجئهم وأقدّمه بشكل مختلف. تخوّفت من تقبُّل المستمعين للجديد المختلف!

امتد بنا الوقت، وقد أحضر يوسف ورقة مكتوب عليها كلمات الأغنية القديمة. ولأنه أخي، ولأنه يفهم ما تقوله عيناي، سألني: «أنت خائف؟».

«كثير!».

مع تقدُّم العمر بي، أدركتُ أنني أقتربُ من أي إنسان بقدرِ ودِّ عينيه. قد تكذب نبرة الصوت، وحتى شيء من ملامح الوجه المتودد، لكن نظرة العين يصعب التلاعب بها. تكشف مضمر القلبِ بصدقه أو تملُّقه، وكم اختبرت نفسي، مُتمنيًا أن يخيب ظني. لكن دائمًا ظل يصدق توقّعي!

«لن نتسرّع، ولن ننسف الكلمات..» أعاد عليَّ يوسف، وأضاف: «سنعيد كتابتها مع شيء من التغيير، لنقدّم الأغنية للمستمع العربي».

«لحظة..».

المستمع العربي، هي العبارة السر التي استحوذت على اهتمامي في تلك الليلة؛ كيف أقدّم أغنية تراثية كويتية بثوب عصري وبفرقة موسيقية، ولاحقًا يتغنى بها كل عربي؟

«تدري؟» خاطبت يوسف: «ننتهي من كتابة الكلمات، وتاليًا نفكّر في اللحن».

«اللحن يضج في رأسي». قال يوسف وقد شعّت عيناه بحماسته، وأكمل: «سيكون لحنًا تراثيًّا كويتيًّا عربيًّا».

في لحظات كثيرة، كنتُ أحس وكأن يوسف ينطق ما في بالي.

صباحًا قصدتُ أنا وهو مبنى الإذاعة ومعنا كلمات الأغنية ولحنها. جلسنا والأستاذ نجيب. أطلعته على

الكلمات الأصلية: «هذه أغنية تراثية، جزء من ذاكرة الكويتيين، لكن يوسف غيّر بعض كلماتها». فرشت أمامه أوراقنا الجديدة.

أدرك نجيب اهتمامنا الواضح. راح يقلب ويقرأ الأوراق، وبعد لحظات قال: «في الكلمات حزن واضح».

«فيها حنين للعيد، وفيها حب وشوق وخيال..» ردَّ عليه يوسف، وأضفتُ أنا: «وفيها فراق محب ولهان مُشتاق يخاطب حبيبه، وفيها مناجاة وأمل بلقاء..».

ربما قدّر يوسف حَيرة نجيب، فقال يطمئنه: «لقد وضعت لحنًا للأغنية. سأُقدّم للمستمع العربي أغنية كويتية عربية جديدة».

جاءت عيناي بعينَيْ نجيب فقلت: «لحن تراثي كويتي عصري، يحبّه المستمع العربي».

«الله، الله.. كل هذا؟!». علّق نجيب وابتسامته بنظرته الحبيبة.

«ويكون الكورس حاضرًا».

«أكيد».

«ممكن أسمع لحن الأغنية؟». فاجأني طلب نجيب، رحت أنظر إليه. تناولت عودي، فأسرعَت إليَّ صور طفولتي وبيتنا في المطبّة ووجه أبي وأخي عبد اللطيف في العيد وأغاني خالتي عودة والسفينة وشاطئ البحر وبكاء المودّعين وشوق ووجع البحارة.. لا أدري كم استغرقت دندنتي، ولحين جاءني صوت نجيب: «عظيم، لحن ساحر، ومؤثّر!». والتفتَ يخاطب يوسف: «اللحن من مقام الحجاز؟».

ابتسم له يوسف: «صحيح، هذا ما عملت عليه».

نهضت أنا أدخن سيجارة سعادتي. قبل أن يلحق بي يوسف ونقصد صديقنا «حمد» نبلغه بالخبر.

* * *

عوض يفتّح عينيه.. الحمد لله..

* * *

الليلة يقف صاحبي هناك عند الروشنة بجانب المسجّلة، ربما طاب له سماع تلاوة القرآن.

هذه أطول مدة أراه فيها. عادة يمرّ بي في لحظات عابرة. وكلما حاولت الإمساك به، أسرع يهرب مُتبخِّرًا من أمام ناظري! لكنه الليلة..

أتمناه ينظر إليَّ، منذ دخوله وعيناه لم تأتيا بعينيّ!

ما معنى مجيئه الليلة؟ وإلى متى سيبقى صادًّا عني؟

حين عُدت من الإذاعة في ذلك اليوم، وما إن دخلت فراشي للنوم حتى تراءى لي وجه صاحبي، وبقي حاضرًا معي طوال الليلة، يُشوّشُ نومي وأحلامي. يحضر ويغيب. حتى إنني حين استيقظت من نومي شعرت وكأني لم أَنَمْ.. عجلًا أيقظت يوسف وذهبنا للإذاعة، لكننا لم نجد «نجيب». سألت عنه دون ردّ، وربما قبل الثانية عشرة بقليل قدِم نجيب، وكما لو أنه كان يتوقّع وجودي قال: «صباح الظهر».

أنا ونجيب ومعنا الفرقة الموسيقية بدأنا عزف اللحن بتوجيهات يوسف. لكن لأول مرة شعرتُ أن كل ما فيَّ كان طرِبًا، وكل ما بي متحمّسٌ، وكل ما بي خائفٌ.. بعد محاولات ومحاولات تجوّدت هيئة اللحن ولمعت، ولحظتها خاطبت «نجيب»: «من الضرورة أن تبدأ الأغنية بصوت الكورس، ولكل مقطع روح تخصّه، كي يسمع الناس شيئًا كويتيًّا جديدًا لم يعتادوه».

راح ينظر إليَّ، فأكملت: «الكورس هو صوت الناس الذين تغنّوا بالأغنية طويلًا».

«عوض..» قاطعني نجيب فسكتُّ ناظرًا إليه، وبعد بُرهة خاطبتني عيناه بصوته: «أنا أحترم كثيرًا طريقة تفكيرك بالناس،

وإصرارك على وجودهم فيما تُقدّم!». أسعدتني جملته، وزادت من احترامي له.. استغرقنا أيامًا في تحفيظ الفرقة اللحن، وتحفيظ الكورس كلمات الأغنية، وكعادته قال نجيب: «جاهزين، بكرة التسجيل بإذن الله».

ظهر اليوم التالي وكعادته خاطبني والفرقة: «البروفة الأخيرة».

لحظة بدأ التسجيل، ولأول مرة خُيّل إليَّ وكأن صاحبي جاء ليجلس إلى جانبي.. كان يجلس على كرسي يحتضن عودًا ويعزف مع الفرقة.. خفق قلبي، استمعتُ بحواسي للموسيقى، لحظة انطلاق الكمان يصاحبه القانون ومن خلفهما دوم الإيقاع، وتاليًا تجلّي ناي علي الحفني وقانون غنيمة وتشيلو سعيد البنا ولحين شدو صوت الكورس، ومن ثم عودة الموسيقى بمشاركتي عزف العود مع صاحبي، والناي يرفرف معي، في حين قلبي ينتظر بدء دخولي للأغنية، وكما عادتي لحظة شدوت بالكلمة الأولى، وجدت نبض قلبي يقود أوتار العود بهزة رأسي وكأنني أنفض اللحن عني:

صوت السهارى يوم مّرو عليَّ.. عصرية العيد
ابطى ركابه وراح يسأل عليَّ.. عصرية العيد

ساعة ما شفته أنا.. بالي انشغل وياه
اقضيت ليلي بهنا.. وأصبحت أعد خطاه
ياللي بقيت بعيد.. اليوم ذا يوم عيد
عيدك وعيدي أنا

كلي أمل ألقاك.. متشوّقًا رؤياك
لاوين أنا أطراك.. والقلب صار مشغول
والعين تطول وتقول.. صدك حرام يطول
ياللي بقيت بعيد.. اليوم ذا يوم عيد
عيدك وعيدي أنا

أبكي سنين وأيام.. ليلي ونهاري ظلام
من فرقتك ما نام
أتمنى يوم المنى.. ساعة صفاك والهنا
ياللي بقيت بعيد.. اليوم ذا يوم عيد
عيدك وعيدي أنا

مثلما طارت بي أغنية «يا من هواه أعزّه وأذلّني» إلى كل شاب وبيت وديوان ومقهى في الكويت، ولسببٍ لا أعرفه، طارت أغنية «صوت السهارى» بي إلى كل بلدان الوطن العربي، وكانت حضوري الطازج والمتجدد والمُغنّى دائمًا بين العرب المغنّين والمستمعين، بل صارت عشق الشباب! أبي سمّاني «عوض»، وقال: «عسى ربي يعوّضنا خيرًا فيه».

لا يمكن أن أنسى تلك الحادثة.. بعد تسجيل الأغنية بفترة، كنتُ أجلس وحدي على شاطئ البحر، أتابع غروب الشمس، بنزولها مُحتقنة الوجه إلى قاع البحر. ولا أدري كيف وقفت تلك المرأة أمامي: «ساعدني..».

أخافني ظهورها المفاجئ، وأخافتني نظرة عينيها، ونبرة صوتها: «اعمل خيرًا لوجه الله».

لحظتها استخرجت محفظتي، وتناولت كل ما فيها، ومددت يدي به إليها. أخذته وانسحبت، ولحظتها ظهر لي وجه صاحبي باسمًا وهالة ضوءٍ تشمله، وكما لم أره قطّ!

رجع أبي ينظر إليَّ، ويُكلّمني: «يا ولدي سنلتقي بعد حين..». بعد حين! أين سنلتقي يا أبي؟ أرجوك ردَّ عليَّ. كأنه يخطو نحوي. لكني أرى حزنًا يغشى وجهه.

أذكر ذلك المساء قال لي رياض السنباطي: «هذه تقاسيم حزينة».

كنا معًا في شقتي في القاهرة، ويومها كان قد هزَّ روحي سماع خبرٍ مؤلم عن صديق أعزّه.. كان رياض جالسًا يقرأ الجريدة، فأخذتُ عودي ورحت أدندن، ولا أدري كيف قادني خاطري إلى مقام الصَبا.. وما إن انتهيت حتى انتبهت أن «رياض» ينظر إليَّ: «آه من حزن مقام الصَّبا!».

سألني عما بي. أخبرته بأنني متألم لحال صديق.

«هذا ما نطقت به تقاسيم الصَّبا التي عزفت!».

ساد هدوء بيننا، وقبل أن أنهض قلت له: «تقاسيم الصَّبا، هي تقاسيم روحي».

راح ينظر إليَّ وقد قطّب حاجبيه، قبل أن يقول: «بل هي تقاسيم حزن أرواحنا أجمع!».

مشهد عاشر

غرقتُ في غناء الستّ

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ٠١:١٥ صباحًا

شيءٌ ما يُخيفُني!

هدأ كل شيء. ربما نامت خالتي ومَنْ معها.

الريح الكريهة صارت تهدأ قليلًا لتهبّ ثانيًا بصياحها.

طنين في رأسي. النعاس يحيط بي، يثقل عينيّ فلا أستطيع فتحهما.

فمي جافّ. سأشرب رشفة ماء، وأتمشّى في الغرفة كي أطرد نعاسي.

وحدها تلاوة المقرئ تبثّ روحًا في المكان.

* * *

شيءٌ ما فعله انتشار أغنية صوت السهارى، أصدقائي من المطربين والملحنين وشعراء الأغنية في الكويت صاروا ينظرون إليَّ بشكل مختلف، بشيء من الإعجاب الذي يسكن نظرات عيونهم ونبرات أصواتهم. وكم أفرح روحي لقاءُ صديقي المطرب سعود الراشد! تقابلنا في الإذاعة فسلّم عليَّ وقبّلني: «هذه أغنية رائعة، ولها عمر طويل!».

كلّمني عن الكلمات واللحن: «أبدعتَ في أدائك».

كنتُ أنظر إليه بتقدير، وإذ به يقول جملته الأجمل: «نجاحك هو نجاحنا!».

فجأةً شعرتُ أن الجميع التفّ حولي، وصار يرحّب بي ويشتري ودّي، وصرت مطلوبًا في كل حفل أو جلسة سمر. وكنتُ أصارح زوجتي أم فهمي، فترد بسرورها: «بسم الله، لا تحسد نفسك، المحبة من الله». تسكت والبسمة لم تزل تلوح في نظرة عينيها قبل أن تضيف: «عسى ربي يزيدك من محبته!».

زاد نشاطي بغنائي، وكم كان يفرحني ذلك؛ ما إن أتسلّم نقودًا عن أي تسجيل أو حفل، حتى أقصد، أول ما أقصد، السوق، أبحث عن الفقراء في الزوايا الصغيرة. أتصدّق بما تجود به نفسي على من يُقابلني. وفرِحًا أطير إلى بيتي لأوزّع المبلغ على أمي وأختي وزوجتي وأبنائي.. أحد النواخذة، أعطاني مرة أكثر مما اتفقنا عليه، فرجعت إليه شارحًا: «المبلغ زايد». رفع وجهه إليَّ. بانت نظرة مسالمة في عينيه. قال: «المال مال الله، ورزق الناس على الناس!». ويومها تعلمت درسًا حملته في قلبي.

منذ بدأت في تسجيل أغنياتي التي ألحّنها، لذَّ لي أن أسمعها لأختي أم بدر.. كنتُ أحسّها تستشعر اللحن وتعيشه، وتُبدي ملاحظات مهمّة أقف عندها.. أذكر تلك الحادثة، أخبرتها بأنني سجّلت أغنية جديدة من ألحاني للإذاعة، فبادرتني: «سمّعني». ولأني لم أفعل شيئًا، نهضت وجاءت بالعود: «تفضّل». هي أختي الكبرى، ومنذ صغرنا وأنا في ظلال رعايتها ومحبتها وحنانها. لذا تربّت معزّتها في قلبي.

بدأتُ العزف وكانت تصغي بانتباه، وحين انتهيت علّقت: «شيءٌ ما ليس مضبوطًا في اللحن».

استغربت جملتها: «هذا لحني أنا وأسمعته ليوسف».

أذكر أغنية «يا بنات الحي». أوضحت قائلة: «أظن اللحن سريعًا، وأنت تتكلم عن غياب الحبيب وشوقك».

في اليوم التالي أضمرت الملاحظة في قلبي. قابلت صديقي «نجيب»، أسمعته اللحن الأول، ومن ثم التغيير الذي أدخلته عليه بعد ملاحظة أم بدر.. ظل ساكتًا لبرهة قبل أن ينظر إليَّ قائلًا: «اللحن الثاني أوقع». لم أكن قد أخبرته بأنها ملاحظة أختي، فأكّد يقول: «لقد لطّفت اللحن». وكم كانت دهشتي حين أسمعت أم بدر اللحن الجديد، فتبسّمت قائلة: «الآن أفضل!».

بعد تلك الحادثة، صرتُ كُلّما سجّلت لحنًا أجيء به لأختي كي أسمع رأيها. هي تجيز اللحن، أو تعترض عليه، فأنظر في رأيها، وأعيد التلحين والغناء، وحتى تقبّله! لذا صرتُ أناديها: «أم بدر المفضّلة!».

* * *

بهدوء ينفتح باب الغرفة. تعود خالتي: «لا أدري لماذا!».

قالت جملتها ووقفت تنظر إليَّ: «أحسّ أنني لا أستطيع التنفّس، كأن جبلًا يجثم فوق صدري!».

أخذت طريقها لتقعد قرب رأس عوض: «يا حسرتي! عوض بالكاد يسحب أنفاسه.. لا شيء مثل قلب الأم..». فجأة راحت تنتحب كاتمةً صوت بكائها.

«خالتي، إن شاء الله صباحًا ننقله إلى المستشفى ويتحسّن».

«الله يسمع منك، لكن...». ظلت ببكائها. مالت عليه تحتضنه وتقبّله. ولا أدري كيف سالت دمعتي. فأشحت بوجهي عنها، لكنها قالت: «لا تخجل، ابكِ؛ عوض يستحق أن يبكي الجميع عليه!».

وكالطفل رحت أجلس في الزاوية، أبكي كاتمًا صوت بكائي، وصوتها: «يا ربي، لا تعذبه كثيرًا..».

شعرت وكأن الريح تجنّ أكثر، ولا أدري كيف أحسستُ ثقلًا جاء ليجثم فوق قلبي.

ربي يرأف بحالك يا عوض.

* * *

«يجب أن تسجّل أغاني أم كلثوم».

استغربت جملة نجيب، كنا نجلس: أنا وهو وغنيمة وعلي الحفني: «أنت تؤدي أم كلثوم بشكل مختلف، والآن الفرقة قادرة على عزف أي من ألحان أم كلثوم».

تلك الجلسة الصغيرة أعادتني إلى عشق قلبي القديم الذي لم يفارقني. عدتُ لأغاني أم كلثوم، وحين عَلِم يوسف اقترح عليَّ: «أفضّل أن ينصرف جهدك لأغاني كويتية جديدة».

«سأسجل أم كلثوم وأغاني كويتية».

«عليك أن تعيش الآن وحولك كلمات كويتية وألحان جديدة».

تناقشنا طويلًا، وكانت نقاشاتنا تصل أحيانًا إلى الصراخ، لكني قلت له: «سأسجّل أغاني أم كلثوم».

«وأنا لست ضد أم كلثوم!».

ما هذا؟ كأني أرى الست تعود إليَّ!

هي تأتي لزيارتي ربما لأنها عرفت بمرضي. سبق لها أن زارت الكويت، لكنها الليلة تأتي لزيارتي في غرفتي! أتمنى لو أنهض وأرحّب بها.. ربما شعرت هي بحالي!

أذكر ذلك، بعد نصيحة نجيب، عدت إلى مكتبتي، وعدت إلى أسطواناتي وغرقت في غناء الست، ونسيت كل شيء.. سجّلت أكثر من أغنية بتلذذي وعشقي لغنائها، وكنت في كل ما غنّيت مسكونًا بأن أؤدّي الأغنية بأحاسيسي وبشكل يخصّني ولا يسيء للحن الأغنية ولا للست.

* * *

أم كلثوم تقف قرب الروشنة ناظرة إليَّ من خلف نظارتها السوداء!

حضرت أم كلثوم برأسي حين قدّم لي الصديق الشاعر عبد الله عبد اللطيف العثمان، ورقة قائلًا: «هذه قصيدة كتبتها، وسأسعد لو غنّيتها».

أخذت القصيدة منه، وحين عدت إلى غرفتي قرأت كلماتها فرفَّ قلبي. اتصلت بنجيب: «أنت في الإذاعة؟»

«نعم».

«انتظِرني، أنا قادم».

حين أعطيته القصيدة، وقلت: «الشاعر العثمان كتب عنوانًا لقصيدته: ويح قلبي، لكني أقول: هذا قلبي».

أخذ نجيب يقرأ القصيدة، لكني لمحت نظرة في عينيه أخافتني، قبل أن يسألني: «أنا مَنْ سيُلحّن هذه الأغنية؟».

«طبعًا».

«وأنتَ؟».

«سأُغنّي قلبي».

عادت تلك النظرة إلى عينَيْ نجيب، وقبل أن أغادره أخبرته: «حين تنتهي من اللحن اتصل بي».

انكببت لأيام أحفظ الكلمات وأم كلثوم تسكن رأسي. وفي كل مرة أشعر أن الكلمات تغني روحي، وأنها تخصّني، وأنها تقول بعضَ ما في قلبي!

وحتى اتّصَل بي نجيب يخبرني: «اللحن أصبح جاهزًا».

قابلته، فعلمت أنه أجرى أكثر من بروفة مع الفرقة. شعرت وكأن شيئًا يختفي خلف نظرته.

سألته: «اللحن حزين؟».

«لحن قلبي وقلبك». ردَّ عليَّ بابتسامته، وقال: «لِيَبْقَ خفق قلبك حاضرًا طوال الأغنية، استخدمت «دُمْ» إيقاع الوحدة الكبيرة، وجعلت نغم الكونترباص يصاحبك طوال غنائك، في حين الناي يرفرف معكما». وأصدر تعليماته للفرقة: «لنبدأ».

أحببت اللحن، ورددته مع الفرقة أكثر من مرة.

«لكَ أي ملاحظات؟». سألني نجيب.

«في الغناء سأقول كل كلمة على طريقتي، وعلى العازفين أن يتبعوني حيث ذهبت، فقد أتصرف بمسار اللحن ولهم أن يعينوني على الرجوع إليه».

«كما تشاء».

في الأيام التالية، راجعتُ اللحن وتدرّبت بأكثر من بروفة مع الفرقة. لاحظت أنني حين ألفظ «كم تعذّب» تلتصق كلمة تعذّب بسقف فمي وكأنها لا تريد أن تفارقني.

«اللحن والفرقة أصبحا جاهزين». خاطبني نجيب.

«وأنا كذلك».

نظر نجيب إلى الفرقة، وقال كلمته التي أعشق: «سنُسجِّل الآن».

ربما هي المرة الأولى، حين بدأت الغناء، شعرتُ بأني أغنّي نفسي.. رحت أتلذَّذ بكل كلمة، أعيد الكلمات واللحن يطاوعني، أخرج من «كوبليه» وأدخل غيره وأنا خفيف أطير على سحر اللحن.. أذكر أنني انسجمت، وخلافًا لعادتي اشتكيت بغنائي أكاد أبكي وأنا أردد: أوف، أوف.. وارتفاع صوت عذابي مُرددًا: كم أعدّوا من نبالٍ، فإذا بعازف القانون غنيمة يهزّ روحي، يترك للقانون أن يحضر مُتجليًا مع الإيقاع، فصاح المقام برأسي: كم أعدّوا من نبالٍ.. لا أدري لماذا غنيت بتلك الطريقة! ولا لماذا كنتُ أذوب بطعم كلماتي!

وَيْحَ قلبي كم تعذّب في ظباءٍ عذّبوه
كلّما ارتاح قليلًا وتنحّى.. سَلَبوه

هكذا حال المُعَنّى.. وَيْحَهُمْ كم نهبوه
ويحهم.. قد ظلموني، مثلما هم ظلموه

كُلّما رَموا عذابًا.. بِشِباكٍ وضعُوه
كم أعَدّوا من نبالٍ.. وبِها قد رَشَقوه

كم غدوا فيه حَيارى.. حينما هم جرّبُوه
قصدهُم تعذيب قلبي.. وبهذا حرّفوه

علّموه كيف يسبي لقلوبٍ عشِقوه
إنّهُم لو تركوه.. ريّحوني.. ريّحُوه

حين انتهت الأغنية، فجأة صمت كل شيء، ورأيت على البعد صاحبي ونظرة حزنٍ في عينيه.. صَعُبَ عليَّ فهم تلك النظرة. ولحظتها جاءني نجيب: «عجيب عوض، هذه أول مرة تغنّي هكذا!».

«هو لحنك يا نجيب!».

أذكرُ أغنية «الغيرة» للشاعر محمد محروس، عشقت لحنها لصديقي للعزيز نجيب، وكنتُ متشوّقًا لغنائها، وحين بدأت البروفة، ووصلت إلى جملة «الغيرة سبايب في فراق الحبايب..»، ولحظة نطقت بالمُرجَّع: والله الغيرة سبايب.. هجمت عليَّ فجأة عبرة موجعة أمسكت ببلعومي فخنقتني. استغربت الأمر وطلبت تأجيل البروفة بخجلي من الجميع.

لا أدري لماذا بكيت في تلك الأغنية، ولا أدري لماذا عجزت عن تجاوز البكاء في المقطع طوال خمسة أيام مع كل بروفة. شيءٌ من ذكرى خفية كان يمسك بي كلما نطقت بالجملة، يهزُّ قلبي ويخنق كلماتي! حتى إن صديقي الملحِّن أحمد باقر

خاطبني حين رآني بتأثّري: «أنتَ مطرب العواطف!». وكم تعذّبت لتجاوز الأمر عند تسجيل الأغنية!

صداقة وأغانٍ كثيرة جمعتني بنجيب، وتركت مذاقها في قلبي وروحي، وكم كانت فجيعتي بفقده، حين علمت بوفاته في القاهرة بتاريخ ٦ يونيو عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين، ويومها خرّت دمعتي، وحضر وجه صاحبي حزينًا باكيًا مثلي!

كأن أم كلثوم انسحبت. ليس سوى صاحبي وقد تحدّب ظهره أكثر!

* * *

مشهد حادي عشر

صاحبي يأتي إليَّ

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ٠١:٢٩ صباحًا

كنتُ في أَوْج انشغالاتي بحضوري الحفلات، وعملي في الوزارة، وتسجيل الأغاني، ودخول صوتي إلى كل بيت، وسفري إلى الأقطار العربية، وشعوري بأن الحظ قد تبّسم لي، راح يسبقني إلى أي مكان أقصده. لكني أذكر ذلك، ربما كنا في شهر أبريل عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين، حينما بدأت أشعر بتعبي. بدأ التعب في رجلي اليُمنى.. أذكر تلك الأيام؛ حين كنت أستيقظ صباحًا أشعر بثقل رجلي، وأنها لا تقوى على حملي، وكم تبدو قدمي ثقيلة لحظة أمشي، فأُضطَر إلى جرّها.

أخفيت في الأيام الأولى الأمر عن أم فهمي، وعن أم بدر ويوسف، وحينها كان مشغولًا بدراسته في القاهرة، وكنا نلتقي هنا في الكويت، أو أسافر إليه في القاهرة.. في البَدْء لم ألتفت إلى تعب رجلي، قلت ربما، وربما.. رحت أعالجها ببعض المراهم، وأؤجّل الموضوع، أقنع نفسي: تعبٌ عابر وسيزول! لكنّ صداعًا ثقيلًا راح يضغط رأسي، وتعبًا تعيسًا استمر يمسك بجسدي ويكاد يشلُّ حركتي.

بين ثقل رجلي وصداع رأسي وتعب عموم جسدي، ارتفعت وساوس الخوف تدبّ عليَّ. ذهبت إلى طبيب المستوصف. شرحت له ما أُعاني. فحص فخذي وساقي وقدمي، واقترح عليَّ: «تحتاج إلى راحة».

بقيت أنظر إليه، فسألني: «تشعر بتعب وتُجهد أنفاسك حين تمشي؟».

«نعم».

«تُدخّن؟».

ابتسمت لسؤاله، وصدقته: «أنا لا أستطيع العيش من دون تدخين».

«ربما كان هو السبب».

كتب لي فحوصات، ومعها بدأت رحلة الآلام..

* * *

في بداية مرضي، لا أدري ماذا أصابني، ذبل شيء في خاطري وقلبي. أخافتني الفحوصات وأنا أتتبّع نظرات الأطباء المقطِّبة وهم يقرؤون تقارير المختبر.. فقدَتِ اللحظاتُ رتمَها، ولا عاد شيءٌ يمسُّ روحي.. أذكر، كنتُ أقلّب في أوراقي حين توقّفت عند رسالة صديقي الملحن رياض السنباطي، التي كتب التاريخ في أسفلها ١٦/ ٨/ ١٩٦٩. رياض الذي طالما جلسنا معًا في شقتي في القاهرة، وكما دارت أحاديث بيننا. قرأت كلماته، وهيّضت ذكرياتي:

«استمعتُ كثيرًا للصوت الحبيب المعبّر الدافئ، وهو صوت الأستاذ عوض دوخي فكنتُ أتأثّر وأطرب كثيرًا لهذا الإحساس المرهف، وإني إذ أعبّر عن إحساسي به، أتمنى له كل توفيق ونجاح دائم».

أخي يوسف ظل طَوال وقته يطلب مني: «غنِّ، غنِّ!».

هل توقّع يوسف شيئًا يمسّني؟ لا أدري..

لحظة عرفت بمرضي تذكّرت كلامه، وخرّت دمعتي، ولم أقل له شيئًا، لكني شعرت بأن لدي الكثير الكثير مما لم أقدّم؛ لدي أصوات، ولدي أغانٍ وألحان، ولدي..

كم ناجيت ربي بتقبّلي أمره: اللهم لا اعتراض، لكن.. لماذا أنا يا ربي؟

صاحبي لاهٍ عني الليلة! والسؤال يملأ روحي ويُؤلِمني: لماذا حضر إن كان لا يريد النظر إليَّ؟!

* * *

اللهم لا اعتراض..

قبل قليل كدت أنام، سقطت رقبتي على صدري فجفلت!

نهضتُ أفتح باب الغرفة، فلفحني البرد، قلت لنفسي: لا أريد أن يسرقني النوم.

الغرفة تعبق بالدخان، ليتغيّر هواؤها قليلًا.

مُسرعة فتحت خالتي باب غرفتها، وخائفة قذفت عليَّ سؤالها: «صار شيء لعوض؟».

أخافني سؤالها فقلت: «لا، عوض بخير».

«الحمد لله».

بقيت لثوانٍ واقفًا عند باب الغرفة، ومن ثم عدت..

عوض مغمض عينيه. ما زال الظلام في الخارج، لكن الريح بدأت تهدأ.

قبل قليل تفحّصت دفتر تليفوناتي الصغير.. احتفظت برقم طوارئ مستشفى الصباح منذ مرض عوض. سأتصل بهم حال يشرق الصباح.

* * *

مع تراكم الآلام عليَّ، قرر الطبيب: «يجب إجراء فحوصات أخرى..».

شيئًا فشيئًا تحول يومي من جلسة عود وشعر ولحن وأغنية وتسجيل، إلى آه ومرض ومستشفى ومختبر وكشف طبيب وعلاج، وإقامة في غرفتي.. كنتُ بين الفحوصات، وألم رجلي والصداع والتعب، ووساوس الخوف، وبين ألمي بأنني ما عدت أقدّم شيئًا جديدًا.

عذّبتني فكرة أنني لا أستطيع الجلوس لتلحين أغنية، أو زيارة فرقة الإذاعة والجلوس بينهم.. هو المرض، هو أمر الله، نزل عليَّ دون غيري!

منذ عام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين، أعيش عذابات المرض المرّة، وأنا أردد اللهم لا اعتراض!

صدّني المرض عن عيش انشغالاتي الحلوة؛ قراءة كتاب، أو التلذذ بقصيدة شعر. منعني عن عزف العود والتلحين والغناء. ورحت أدفع السؤال الصعب بعيدًا: لماذا أنا؟ ما كان لي ترْك عشق قلبي للموسيقى والغناء، لكن تعبي اللعين شغلني بين مراجعة طبيب، وموعد أشعة، وإعطاء عينة دم للمختبر، ودواء جديد بأمل أُمَنّي النفس به.

كرهتُ أن أُحسب على المرض، وكرهت أن يأخذني من عيش يومي، ويحرمني من الغناء. صرتُ حين أمشي بين الناس، يدور في بالي وحسرتي: هؤلاء البشر جميعهم أصحاء وأنا مريض، وساعتها صار طعم المرض في فمي وأنفاسي. كنتُ أريد أن أطرد المرض. وكنت أريد أن أهزمه. وكنت.. لم أكن أعلم ماذا ينتظرني؛ لذا قررت أنّ نجاتي من آلامي ستكون عبر الغناء والتلحين.. أبي قال: سأسمّي «عوض»، عسى ربي يعوّضنا خيرًا فيه!

ما هذا؟ كأني أرى طيف أبي قد عاد! جاء ليقف خلف صاحبي!

ما الذي جاء بأبي الليلة برأسه المكشوف؟!

لماذا يأتي، ولماذا يقف ناظرًا إليَّ بصمته؟!

أتمنى لو تراه أمي!

ها هو يُكلّمني: «يا ولدي سنلتقي بعد حين بين..».

أين سنلتقي يا أبي؟ ما هذا؟ كأن أبي يبكي، وكأنه يخطو نحوي..

طفل صغير لا أذكر من أبي سوى نظرته الحانية.

أذكر حين كنت أسجّل إحدى أغنياتي، وطلبت من سعيد البنا: «لنسترِح قليلًا». استغربَ جملتي أنا الذي كان يركض وراء اللحظة! أنا الذي تستفزه الاستراحات، أنا الذي يعيش اللحن ولادةً وتدريبًا وعزفًا وبروفة. يومها كانت المرة الأولى التي أنتهي من تسجيل أغنية وأشعر أنني مُنهك كأني ركضت أميالًا لا تُحصى.

صاحبي الليلة يكاد يُبكيني، رافضًا العطف على حالتي والنظر إليَّ؟

طوال فترة مرضي ورقادي في المستشفى أو البيت، كان بالكاد يلوح لي، وما إن ألتفت إليه حتى يغيب متواريًا خلف نظراتي.

الليلة يقف هناك، على بعد أمتار مني..

يوم رأيته أول مرة تمنّيت لو ألمسه، وبقيت طوال عمري أتمنى أن أصل إليه. الليلة يرافق مسائي رافضًا النظر إليَّ.

* * *

باب الغرفة يُفتح وتدخل خالتي. الحزن والقلق يطبقان على وجهها. أنهض أنا، ودون أن تكلّمني، تقعد قرب رأسه، وتمدّ

يدها لجبهته، وتبدأ بقراءة سور القرآن عليه، وكذا المقرئ يُرتّل... كلاهما يتلو القرآن من أجل عوض!

دخلت الغرفة وكأنها لم تَرَني!

سلوكها يُخيفُني.. لا أدري لماذا تغيّرت سحنة وجهها؟ لا شيء سوى تلاوة المقرئ..

ما عدت أسمع صراخ الريح.

أخيرًا سكتت الريح!

* * *

كيف جاء طبيب لندن إلى غرفتي؟

أراه يقف قرب الروشنة، ربما جاء ليطمئن عليَّ..

بعد أشهر من دخولي مستشفى «الصباح»، سمعتُ شيئًا في كلام الأطباء أخافني. وحينها كانت آلام رجلي لا تُحتمل. أصبحت أثقل من أن أسير بها! طلبت من يوسف نقل الخبر إلى المسؤولين، فوصل الأمر إلى سمو ولي العهد الشيخ جابر الأحمد، ومباشرة أصدرَ تعليماتِه بأن أسافر للعلاج في لندن، لتكون تلك هي رحلتي الأولى للعلاج.

مع بَدْء مرضي اتخذت قراري: لن أشكو عذابي إلى أحد. لن أكون ثقيلًا على مَنْ حولي. لن أُخيف زوجتي وعيالي،

ولن أخيف أختي أم بدر. المرض أمر الله، ولا داعي لأن أعذّب أهلي معي. ولحظتها صفعني السؤال، وخرّت دمعتي: «مَنْ لعيالي بعدي؟».

* * *

خالتي أم فهمي مغمضة عينيها، غائبة عما حولها. تقرأ آيات من القرآن، ويدها على جبهة عوض.

كأني لست موجودًا إلى جانبها.

ربما عليَّ أن أتركها وحدها مع ولدها. لكن أخاف لو خرجت أن تحتاجني بأي شيء..

صوت المقرئ الحزين يملأ الغرفة.

كأن البرد انسحب من الغرفة!

لماذا صمتت الريح؟ ولماذا خاف البرد وانسحب؟

* * *

الطبيب الإنجليزي يبتسم لي..

السفر يفقد متعته الأجمل حين يكون بداعي المرض والعلاج. يكون ثقيلًا بالأوجاع، وكئيبًا بالهواجس، ومرًّا بالعلاجات.. هناك في لندن البشر مختلف، ونظرات العيون مختلفة، وتعابير الوجوه، والرطانة، والهواء، وطعام المستشفى بطعم الصابون..

كل شيء كان يعذبني، وأكثر ما ظل يمسك بي هو شوقي لعودتي إلى الكويت وأهلي وعودي وأغنياتي.

بطيئًا تقدّم علاجي، لكني صرت أشعر بتحسّن، وبعد أشهر بدأت أسترد عافيتي، ودبّت الصحة برجلي. صحيح أنني صرت أمشي ممسكًا بعصا. لكن لم يكن أحدٌ أسعد مني يوم أخبرني طبيبي المُعالِج، الدكتور «لؤي»: «تقدر ترجع لبلدك».

مستعجلًا طلبت حجز تذاكر عودتي، وكم كانت المفاجأة كبيرة وأفرحت روحي! لحظة اكتشفت أن أهل الكويت جميعهم خرجوا وجاؤوا لاستقبالي، فما إن انفتح باب الطائرة، إلا والعشرات يهجمون عليَّ يقبلونني، وجملة:

«الحمد لله على السلامة».

لا أدري من أين راحت ترتفع عبارة: «أبو فهمي!». ملأت كل الفضاء من حولي. ولقد أصرَّ صديقي الفنان المسرحي صقر الرشود بدفع الكرسي الذي أجلس عليه. التفتُّ إليه قائلًا: «هذا كثير يا صقر». فضحك عاليًا وهو يقول: «الفرح الكثير هو عودتك لنا!».

حين وصلت إلى بيتي وعانقَت عيناي أمي وأختي وزوجتي وعيالي تنفّستُ، وشعرتُ أنني عدتُ إلى الحياة.

الليلة كأني في الحياة، وكأني لستُ كذلك!

* * *

«عوض.. وليدي عوض..» خالتي تخاطب «عوض» وتهزّه بلطف. وتلتفت إليَّ قائلة: «ما عاد يفتح عينيه. لكن، الحمد لله، ها هو يفتحهما».

تغيّر شيءٌ في وجه خالتي.

هدأت الريح الملعونة، وكأن لم تكن موجودة.. ووحده صوت المقرئ..

كأن شيئًا من خوف غريب تسلل إلى الغرفة.

* * *

الله، لو كنت أستطيع النهوض لنهضت أُرحب به؛ ها هو الشيخ جابر العلي يأتي لزيارتي. الرجل الكريم الذي وقف معي وساندني دائمًا.

في الأيام الأولى لعودتي شعرت أن كل شيء يبتسم لي. زرت الشيخ جابر العلي لأشكره على كرم اهتمامه، فقال لي: «أنت تستأهل، وهذا من الكويت التي تحبك». أسعدني كلامه، وشعرت وكأن كلامًا خلف نظراته، فسألت: «يا طويل العمر، أقدر أقدّم أي شيء؟».

«طبعًا، ستُقيم الوزارة حفلًا كبيرًا لك، وستُغنّي أجمل ما يكون».

كيف أنسى مساء الخميس، ١٩ يونيو عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين، فلا أعلم كيف صادف أن يكون احتفال

الإعلام بي هو يوم استقلال الكويت.. رفرفت روحي وأنا أدخل مكان الحفلة وفرقة الخالة عودة المهنا تزفّني بالدفوف والغناء، والجميع ينهض للسلام عليَّ، يومها أدار الأمسية الصديق الإعلامي رضا الفيلي، وكان أخي يوسف إلى جانبي، كما أسعدني وجود صديقي المطرب محمود الكويتي، وفرقة الخالة عودة، وفرقة الفنطاس الشعبية.

* * *

كأن طبيبي الإنجليزي انسحب..

تعوّدت أن أنسحب، أختلي بنفسي عقب أي حفلٍ أو جلسة سمر. لا أريد لأحدٍ أن يُشاركني لحظات صفائي. بلهفة أُدخّن سيجارتي الحبيبة. بهدوء أمتصّ كل نفسٍ مُتلذذًا، فيُحيطُني سلام الدخان. أسترجع شريط الحفل متفكّرًا فيما قدّمت.. أذكر ذلك اللقاء؛ كنتُ وحدي والدخان وعودي الحبيب، حينما طرق أحدهم الباب: «ادخل». قلت، فأطل وجه شابٍّ لا أعرف. وقف بالباب، وخاطبني بنبرة مؤدبة: «مساء الخير أستاذ عوض. ممكن رجاء؟».

ابتسمت له، ورددت: «تفضّل».

«أستاذ عوض، قدّمت الصوت كثيرًا على الطريقة البحرينية، ونتمنّى أن تُغنّي الصوت الكويتي».

كنتُ أنظر إليه، لحظة قال: «هذا ليس رجائي وحدي، بل معي أصدقاء كثر يحبّونك».

بقيت أنظر إليه: «هذا رجاء». قال عبارته وكما ظهر فجأة، انسحب مغلقًا الباب خلفه.

بقيت في جلستي للحظات والدخان وسؤاله برجائه. نهضت بغية الحديث معه. لكن حين فتحت باب الغرفة لم أجده.. يوسف وصديق له كانا جالسين يتبادلان الحديث.

في تلك الليلة، سهرت في غرفتي ووجه ذلك الشاب وطلبه اللطيف: «غنِّ الصوت الكويتي».

انتبهت إلى أنني قدّمت الصوت كما غنّاه محمد بن فارس وضاحي بن وليد بأداء بحريني، وأن ذلك لازمني طويلًا.. همستُ نفسي: أنا أعشق بلدي الكويت، وأعشق الصوت الكويتي.. ولا أدري كيف ارتسم أمامي وجه الشاعر والمطرب والملحّن عبد الله الفرج بكلمات قصيدته: «البارحة في عتيم الليل» ارتفع لحن الصوت يملأ رأسي.. بهدوء أطفأت سيجارتي، وسحبت عودي ورحت أُدندن بنشوتي:

البارِحة في عَتيم اللّيل ناحَتْ حَمامة.. بالصّوتِ مِتْرَنِّمة

ناحَت بِصوتٍ لها.. مِن فوق راسِ العَدامة.. ما حدٍ لَها فاهِمة

واللهِ لولا الحَيا.. وأدري وأخاف المَلامة.. لَحِبَّه مِن مَبْسِمَه

قوم اسقِني الكاس يا.. خلّي ودير المُدامة.. وداوِني باللّما

ولأنه صوت، ولأنه كويتي، ولأنه عشقي، وجدتني في تلك الليلة أعيد غناءه بأكثر من لحن.. دار ببالي: سأغنّي الصوت الكويتي، بثلاثة ألحان. رددت ونفسي: ليكن، هي الكويت حبيبتي!

في اليوم التالي، أخبرت يوسف بقراري، فبانت السعادة على وجهه وقال: «صوت كويتي بثلاثة ألحان، هذا المُنى!».

لا أذكر متى آخر مرة سافرت إلى دبي..

وسط توزّعي بآلامي. جاءني تليفون من صديق يسألني: «ممكن تغنّي لدولة الإمارات؟».

أجبته بفرحي: «طبعًا، بكل سرور!». ودار ببالي: لا شيء ينعش روحي كما الغناء!

أنهى صديقي المكالمة، وما هي إلا لحظات حتى وصل إليَّ صوت رجل يتكلّم اللهجة الإماراتية: «الأستاذ عوض؟».

شكرني لقبول فكرة الغناء للإمارات، وأخبرني أنهم يرغبون أن أغني أغنية وطنية..

مكالمة طويلة دارت بيننا واتفقنا على الكلمات والغناء..

تواصلت مع الشاعر عبد المحسن الرفاعي، وما هي إلا أيام وأرسل إليَّ قصيدته:

تِمايل يا شِجر

سَعينا واتَّحَدنا احنا سعينا وبَنينا ساس وَحْدتَنا بَنينا

لِنا طير السَّعد غَنّا وفي عيد الوطن هَنّا

تِمايل يا شِجر وارقص بفرحتنا

رُفعنا اعلام عِزَّتنا وثَبَّتنا عَزيمَتنا

هَدَفنا نوَحِّد الصَفّين ولا بالحق نَترِك دين

تَعبنا والفَخر تَوّج سَعادتنا

تِمايل يا شِجر وارقص بفرحتنا

خَليج العَرب ساحِلنا وجَزيرتهُم جَزيرَتنا

حبايب كِلِّنا خِلاّن على طول الزِّمان أخوان

نِجْمَع اسم الإمارات واسم دَولتنا

تِمايل يا شِجر وارقص بفرحتنا

أحببت كلمات القصيدة، دار ببالي أن ألحّنها بنفسي، لكني قدّمتها لأخي يوسف، فلقد كانت قد انقضَتْ عَشرُ سنوات أشبه بالجفوة بيننا، لم نتعاون معًا فيها.. وكما كانت دهشتي حين لحَّن يوسف الأغنية خلال دقائق، بإيقاع جديد: سألته: «ما الإيقاع الذي تفضّله لهذا اللحن؟».

«هذا إيقاع جديد مني سأسمّيه رويسي!».

بعد تسجيل الأغنية، وحين قابلت أختي أم بدر، ابتسمت لها قائلًا: «أنا أشهد أن يوسف عبقري!».

الليلة، أشعر بهما من حولي، لكن لا يوسف يكلّمني ولا حتى أختي أم بدر.. وحده دويّ الريح يملأ أُذنيَّ!

* * *

خائفًا يطل وجه يوسف، يدخل الغرفة فتبادره خالتي: «ابقَ إلى جانب أختك».

يمتقع لون وجهه بخوفه، ناظرًا إلى أخيه.. تخرّ دموعه، وصوت خالتي يحثه: «روح، روح».

* * *

ما أكثر ما تساءلت: لماذا يمسك المرض بي يرفض مغادرة جسدي؟! عشتُ نشوة رجوعي، وسجّلت أغاني جديدة، لكني شعرت أن شيئًا ما قد انكسر في روحي، وأن ظلًّا شبحيًّا لمرضٍ يساير خطوتي ويتربص بي، ويوسوس لي بين نوبة صداع، أو ألم في صدري، أو كحّة، أو بلغم بلون الدم.

مرارًا تذكّرت مشهد تلك الفتاة المسكينة التي حلَّ بها الجان، وبمدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتلاوة القادري المباركة خلّصتها المُطوّعة من الجان الذي يتلبّسها. نهضت الفتاة ومشت صاحية. لكن، مَنْ يُخلّصني أنا مما ألمَّ بي؟

الله! الله! ها هو المقرئ الحاج محمود عبد الوهاب يحضر الليلة! لم يسبق لي أن قابلته.. سأجعل عبد الله يُغلِق المسجل، وسأسمع التلاوة بصوته الشجي، عساه يساعدني. كلام الله عظيم!

مَنْ تراه يساعدني، ينقذني من مرضي؟ يُخلّصني من ضعفي فأنهض صاحيًا؟

سامح الله صاحبي، لا يريد النظر إليَّ ولا مساعدتي!

سنتان وأنا أُخفي هاجسي حتى عن نفسي، لكن آلام صدري صارت تلح عليَّ، وحين عدت إلى الطبيب قال لي بنظرة عينيه المحايدة: «اترُك التدخين».

بقيت ساكتًا أتفكّر في جملته، قبل أن أسأله: «ماذا غير ذلك؟».

«صدرك ضعيف ما عاد يتحمل التدخين، كما أن الفحوصات لا تُطَمئِن!».

صفعتني جملته، أسرعت أسأله: «ماذا تعني؟!».

تردد ينظر إليَّ. عاينت نظرة أخافتني في عينيه، وصوته: «لستُ متأكدًا، لكن الفحص المخبري يقول: قد يكون لديك سرطان في الرئة!».

زلزلتني كلمة سرطان! الله أكبر: سرطان في الرئة!

ربما أموت.. لا أريد للشيخ جابر العلي أن يراني أموت، ولا الحاج محمود.. لكنهم انسحبوا وليس قرب المسجلة سوى

صاحبي. يقف وقد عاد الألق لوجهه، وانتصب بشبابه.. لو ينظر إليَّ.

ها هو أبي يسير نحوي، وصوته: «يا ولدي سنلتقي بعد حين بين يدَي...».

أرجوك تكلم يا أبي أَكمِل جملتك! نلتقي بين يدَي مَنْ؟ أبي يبكي، في حين هو يخطو نحوي.

لحظة أخبرني الطبيب بالسرطان، لا أدري ماذا جرى لي. بقيت مُسمّرًا في جلستي، تفوّه الدكتور بجملة لم أتبيّنها. وبعد برهة لملمت نفسي صامتًا، وتركت غرفة الطبيب وكل ما حولي يكاد يضغط صدري وقلبي.

أشتاق لتدخين سيجارة.. أشمُّ رائحة دخان..

تعرفت السيجارة منذ صباي الأول، عايشتها خُلسةً ريثما عرف أهلي بها.. السيجارة؛ وحدها صديقتي الأوفى، وحدها لم تخذلني في أي لحظة.. تردّ على قلبي بعض العزاء. تحمّلت هي ضيقي وعصبيتي وهواجسي، وكم تصاعد الدخان يحيط بي يخفف عني ألمي بخيباتي!

أشتاقُ لسيجارة..

صاحبتني السيجارة حيثما ذهبت، ولم تلمني في موقف أو تجزع مني قَطُّ! أعرف الاستيقاظ صباحًا بسيجارة، وأودّع يومي

مساءً، أدخل نومي بسيجارة.. كنت أمشي في ردهات المستشفى والجملة الفجيعة تلاحقني: سرطان الرئة! عصف بي هوى السيجارة. فجعني مرض رئتي، ودار ببالي، تعِبتْ رئتي لأنني أتنفس منها، ولأنني أدخن منها، ولأن أنفاسي الحرة تخرج منها، ولأنها عايشت آلام عمري.. تعِبتْ وما عادت تتحمّل.

أشتاقُ لسيجارة..

أهوّن عن رئتي قلت: مَنْ لم يجرّب عشق السيجارة لا يستطيع الكلام عنها.. يوم أخبرني الطبيب بسرطان الرئة بحثت عن سيارتي في موقف المستشفى، نسيت أين وقفت بها! رددت ونفسي: صداقة وعشق السيجارة ورائحة الدخان شكّلا يومي.. رفعت رأسي أنظر إلى السماء. شعرت بها قريبة جدًّا لو رفعت يدي للمستها، وأخصّها بوفائي للسيجارة الحبيبة قلت: لن أتوقف عن التدخين. وليصعد الدخان بألمي إلى السماء!

* * *

telegram
@yasmeenbook
مكتبة ياسمين

مشهد ثاني عشر

لقاء الأرواح

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩
الساعة ٠١:٤٤ صباحًا

«عوض تعب جدًّا». أخافتني جملة خالتي. احترتُ بماذا أرد!

«وليدي عوض».

يوسف يدخل والهلع على وجهه.

«الحمد لله، عوض يفتح عينيه». تقول خالتي.

سكنت الريح، وانسحب البرد، وتسللت رائحةُ خوفٍ غريب للغرفة، ووحده صوت المقرئ.

قلبي يخفق بسرعة. كأن رائحة خوف غريب تشمل الغرفة.

* * *

كلٌّ مِن أبي وصاحبي يدنوان مني..

كلاهما جاء يزورني..

كنتُ حين أزور مبنى وزارة الإعلام أبدأ بمكتب الوزير الشيخ جابر العلي. أجلس ومدير مكتبه، أدخّن سيجارة، مع كوب قهوة، وأعرف منه الجديد: «الشيخ يريدك أن تسجّل أغاني أم كلثوم للإذاعة والتليفزيون». أخبرني مدير المكتب.

رحت أنظر إليه، متمعّنًا فيما يقول، لكنه نهض فجأة، خرج مِن خلف مكتبه، واستأذن الدخول على مكتب الشيخ، قبل أن يفتح الباب بعد لحظة ويخاطبني: «تفضّل».

أطفأت سيجارتي. نهضت بهدوء. دخلت مكتب الشيخ: «صبّحك الله بالخير طويل العمر».

«هلا بالنوخذة».

كالعادة بدا المكتب غارقًا في رائحة البخور. ما إن جلست حتى بادرني: «نريد منك تسجيل أغاني أم كلثوم للإذاعة والتليفزيون».

تلاقت نظراتنا. آنستُ تلك النظرة المحبّة في عينيه. فأجبت: «بكل سرور».

«اختر ما تشاء، وأنا متأكد ستكون التسجيلات جميلة».

«سأبذل كل ما يمكنني».

«أنا واثق بذلك».

أشار لي مدير المكتب بما يعني انتهاء الزيارة، فنهضت.. دار ببالي أن أخبر الشيخ عن تعبي، لكني خجلت، فتبعت مدير مكتبه خارجًا، تاركًا الشيخ لانشغالاته الكثيرة.

أذكر ذلك، في السنة الماضية.. كنتُ في مراحل المرض، وكنتُ في تعبٍ ثقيل لا ينفك يضغط على صدري وقلبي. وكنتُ حين أستيقظ كل يوم، أعتدل جالسًا في فراشي، وكأني أستجمع قواي لأعرف كيف أنا في اليوم الجديد.

بعد مقابلتي للشيخ بفترة قصيرة، اكتشفت أن مدير مكتبه قد رتب الأمر مع فرقة الإذاعة، وكذلك التسجيل في التليفزيون.

لأيام سكنتني الفكرة، وحام من حولي السؤال: أي أغانٍ للست سأُغنّي؟ بقيت أدندن طوال اليوم بألحان مختلف الأغاني

الكلثومية. ولحين اتخذت قراري: سأغنّي: «حيّرت قلبي معاك، وعوّدت عيني، وأنت عمري، وأغدًا ألقاك».

زرت الإذاعة واتفقت مع الفرقة على الأغاني، وسرعان ما بدأت البروفات.

كنتُ تعِبًا، لكن كان عليَّ أن أبدو متماسكًا أمام الجميع.. الأمر جاء من الشيخ ووَفْق ما يحب قلبي. تحاملت في إخفاء أوجاعي، وخاطبت رئيس الفرقة عازف الكمان حمدي الحريري: «أنا جاهز للتسجيل، بقي أن تجهز أنت الفرقة!».

مع بَدْء تسجيل الأغنية الأولى زال عني مرضي، وتبخّر ألمي، وحضر الغناء، وحضرت الموسيقى، وحضرت الست، وحضر ولعي بها، وجاءت العافية، وجاء الفرح لقلبي.. انغمست في عزف العود والغناء والتسجيل ونسيت كل شيء.. حينها قلت لنفسي: عليَّ أن أبقى أُغنّي كي أبقى بعافية!

أذكر أنني كنت أترك مبنى الإذاعة والتليفزيون أعود إلى بيتي مسرعًا لتغيير ملابسي. تأتيني نظرة أم فهمي الحنون حين تخاطبني: «كُل لقمة، ولا تتعب نفسك، عسى ربي يديم عليك صحتك!».

ربما في تسجيل الأغنية الأخيرة، فوجئتُ بمجيء مدير مكتب الشيخ، جلس يستمع وابتسامة تغشى وجهَه، وحين انتهيت من التسجيل اقترب مني قائلًا: «الشيخ يخصّك بالسلام، ولقد أرسلني لأطمئنّ عليك وعلى التسجيل».

«الحمد لله، كل شيء طيب». رددت عليه، لكن ابتسامته ظلت تشمل وجهه، أوضح: «الشيخ يقول: بن دوخي فنان ترجع له الروح حين يغني!».

ابتسمت له وقلت: «صحيح».

وكان أن طارت أغاني أم كلثوم بصوتي وإحساسي لمستمعيها في أقطار الوطن العربي والعالم!

ها هو الشيخ جابر العلي يأتي إليَّ! أودُّ لو أنهض لاستقباله..

أذكر كلماته حين قابلني: «أغنيات أم كلثوم كانت رائعة!». نظرة تقدير سكنت عينيه.

بقيت أنظر إليه بخجلي، فأكمل ونظرته الحبيبة الناطقة: «لنا في الكويت أن نفخر بك!».

شعرتُ برجفة باردة عبرت ظهري. لكنه أضاف بهدوء: «الفنان صوت بلده وأهله!».

* * *

أتمنى لو أغني. لكن لا أدري أين عودي؟

بودي أن أحتضن العود.. أين عودي؟

كنتُ آخذ عودي مساءً، وأذهب وحدي لأغني للبحر!

وسط نوبات الألم بدأ البحر يلوح لي، لا تكاد صوره تغيب عن بالي. أحنُّ إليه، وكلما حرقني الشوق، قدت سيارتي إلى منطقة

شرق. أوقفها وأنزل أتمشى على الشاطئ، تصاحبني سيجارتي، وسرعان ما تتلاحق أنفاسي بتعبي، فأختار مكانًا صادًّا أرمي بجسمي، أجلس فتتناثر من حولي الذكريات، وسرعان ما ترتفع الآهة في قلبي: انقضى زمن البحر، ومعه اختفى الكثير الكثير من حلو العيش والوصل والشجن.. بدأت عمري طفلًا يعمل في البحر، عملت سيبًا، وبحارًا، ومغنيًا.. كم وكم عشت البحر! كل شيء انسحب خجلًا متواريًا كأن لم يكن.

فيلم، لا أدري كيف لمعت الكلمة في رأسي، ولحظتها وجدت وجه صاحبي يرتسم فوق كل موجه، وكأني به يردد: فيلم، فيلم!

في اليوم التالي، حملت فكرتي إلى صديقي المخرج بدر المضف، مراقب السينما في تليفزيون الكويت.

«ماذا؟». بعث بسؤاله مُستغرِبًا لحظة فاتحته بالفكرة.

ولأني سكتُّ أنتظر منه أن يفصح، بادرني بحماسة: «أنا في بدء التحضيرات لفيلم عن البحر، وطوال الوقت أنت بفكري».

اهتزَّ قلبي ورددت بفرحي: «فيلم عن البحر؟».

«نعم، فيلم يستحضر أغاني البحر».

«الله، الله.. هذا فيلمي أنا!».

ابتسم بدر وهو يقول: «هذا فيلم عنوانه «سامر من الغوص»، ويسعدنا أن تكون أنتَ النوخذة».

شرح لي أنه أخذ موافقة الشيخ جابر العلي، وأن الفيلم سيجري تصوير مَشاهِده الأولى في منطقة «الجليعة» البحرية، وأنه، وأنه.. راح يتكلم، ورحت أغيب وذكريات قلبي الأحب. وفي لحظة توقّف ناظرًا إليَّ.. فهمت لماذا توقف، وفهمت ماذا يريد أن يقول، فبادرته: «أنا مريض وتعبان، لكني أريد العمل بهذا الفيلم، وأنا جاهز منذ هذه اللحظة».

«التسجيل سيكون على الشاطئ وعلى سفينة في البحر». أضاف بدر.

«ليكن حيثما يكون، أنا جاهز، والبحر عشقي!».

أذكر أنني كنت جالسًا على شاطئ البحر، أتابع تسجيل المشهد الأول من الفيلم، وكانت فرقة «العميري» تؤدي شيلة بفن «السنقِني»، وما إن بدأ الغناء، حتى وجدت نفسي ودون الرجوع لأحد، أترك مكاني، أتناول

طبلًا كبيرًا بقربي وأدخل لأقود اللحن السنغني بالضرب على الطبل.

حين انتهى تسجيل المشهد جاء بدر بوجه باشّ نحوي: «الله يا بوفهمي، دخولك مع الفرقة كان رائعًا، وكان إضافة مهمة..». وتبسّم قائلًا: «أول مرة أشاهدك تضرب على الطبل وتشارك في أداء هذا الإيقاع الصعب!».

ها هو بدر يأتي حاملًا الطبل معه!

ليس بعيدًا؛ السنة الماضية صوّرت الفيلم.. كنتُ مريضًا، وكنتُ تعِبًا، وكانت أنفاسي تتلاحق لأبسط جهد، لكني كنتُ قد اتخذت قراري: ليس أقل من أن أُنصف صديقي البحر! وليس أقل من أن أعيد الحياة لأغانيه وألحانه! ولقد سعدت روحي لحظة أدار الصديق المضف الفيلم، وشاهدته بخفق قلبي، وفي ذلك المساء حين عدت إلى البيت أخبرت أمي وأختي بوجود زوجتي: «شاهدت الفيلم، وفرحت كثيرًا». بقينَ ينظرنَ إليَّ فقلت: «الفيلم قدّم أغاني البحر وقدّمني، وهذا سيبقى لأجيال وأجيال!».

* * *

كأني أسمع تلاوة القرآن..

هربت من مرضي إلى قراءة الشعر وسماع الأصوات القديمة، والتمتّع بالغناء الحديث. وكنت كلما سمعت أغنية كويتية جديدة، تفرح روحي، وأقول: «وأنا لا بدَّ أن أشارك وأقدّم جديدًا».

لكن، ولأن للجسد ضروراته القاسية بدأ التعب يُنهِكني وصارت أنفاسي تتلاحق. فعاودت الدخول لمستشفى الصباح، وعاودت مسامرة المرض في غرفة بيضاء بين أناس شغلهم في المرض والدواء والمرضى.

«الحمد لله، أنا بخير». كنتُ أقول جملتي لأي شخص يأتي لزيارتي، لكني لم أكن بخير قطّ.. المرض حرمني من عيشي

البسيط مع أسرتي وأبنائي وأهلي، وحرمني من عملي، وحال بيني وبين الموسيقى والغناء.

جاءتني الفكرة، فاحترتُ أعاتب مَنْ! عملتُ في أعمال كثيرة مُتعِبة ومُهلِكة، وحين صرت موظّفًا في وزارة الإعلام، وحين عرفت طريقي للإذاعة والتليفزيون، وحين ارتفع اسمي يرفرف في سماء الكويت والوطن العربي، وحين، وحين.. سرطان الرئة!

لماذا خرج الطبيب وتركني؟ ليس سوى صاحبي..

طوال فترة مرضي كنت أشتاق إلى وجه صاحبي.. أكثر من مرة حدّثت روحي، بأن لا صاحب لي وأن كل ما لاح لي هو خيالات لمعت في رأسي.. لكنه الليلة جاء، وها هو يخطو إليَّ.

* * *

بقيت سنوات وأنا أتمرّغ في طين المرض..

تعبت..

الله، الله، ها هو أخيرًا صاحبي يُقبِل نحوي!

* * *

أذكر اتصالًا كريمًا جاءني من الديوان الأميري في البحرين، سمعت صوت صديقي الشيخ راشد وهو يقول:

«اشتاقت البحرين إليك. بلدك الثاني ينتظر زيارة منك». ولأني بقيت ساكتًا أضاف: «كالعادة تُسجّل أغانيَ جميلة عندنا».

كأن الشيخ راشد جاء يزورني.. عليَّ أن أنهض أُرحّب به..

صاحبي بدأ يقترب مني وأبي يسير خلفه.. لا بدَّ لأبي أن يسلّم على الشيخ..

كنتُ تعِبًا، وكنتُ مُتألّمًا، لكني كنت أحفظ ودّ البحرين، وأرغب في دفع نفسي لمقاومة المرض، وأن أعود لعشق قلبي، فاتفقتُ معه على الزيارة. وقلت للشيخ: «أنا مريض، وإذا وصلت إليكم فأرجو أن يتم التسجيل بأسرع وقت ممكن».

«أنتَ في عيوننا!».

وصلت إلى البحرين ربما في منتصف شهر أغسطس عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين.. أذكُر أنّ آخِر صوت سجّلته كان «يا واحد الحسن».. كنتُ تعبًا، ولا أدري لماذا شعرت بأنّ وجعًا يمسّني بشكل ما سبق لي أن خبرته. لكني حين أمسكت بعودي، ورأيت نظرات مَنْ حولي تتركز عليَّ، طردت عني هواجسي. أمسكت بعودي، وعادت روحي تطرب للكمان والقانون وخلفهما المراويس المتلاحقة، ولحظتها غبت أغنّي كلمات الشاعر حسام الدين الحاجري

يا واحِدَ الحُسنِ ارحَم واحِدَ الكَمَدِ
حاشاكَ مِن حرقٍ تَصلى به كَبِدي
في كُلِّ جارِحَةٍ مِنهُ لِسانَ هَوىً
يَشكي إِلَيكَ رَسيسَ الهَمِّ وَالكَمَدِ
يا طولَ سُقمي وفيكَ الشِّفاءُ ويا
ظُلمي وَأَنتَ أَميرُ الحُسنِ في البَلَدِ
أَنتَ الَّذي ما بَدا لِلعَينِ طلعته
إِلّا وَعَوَّذتُهُ بِالواحِدِ الصَّمَدِ
كَم مِن أَسيرِ غَرامٍ لا فِكاكَ لَهُ
لا من مُقلتَيك وَمَقتول بِلا قودِ

حين عدت للكويت قلت لأختي أم بدر: «كنتُ أغنّي وأنا أشعر وكأنَّ سكاكين تنغرس في ظهري!».

* * *

«يا ألله...». صوت خالتي برجفته يرتفع فيخيفني.

«نظرات عوض غارت، وبالكاد يسحب أنفاسه..». تلتفت تنظر إليَّ ودموعها.

لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل!

* * *

سافرت مرة ثانية للعلاج بأمر من أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد، وصاحبني الصديق الشاعر بدر بورسلي. لندن اقترنت في رأسي بالمرض، والأوجاع، والمستشفى، والعلاجات المؤلمة، وبرفرفة حلم ظل يلوح لي: ربنا يشفيني وأردّ لبلادي.. ربما بعد شهر بدأ شيء من تحسّن يطرأ على حالتي، تحسّن بنظر الأطباء، وتحسّن بنظر بعض الذين يأتون لزيارتي ويعمدون لرفع معنوياتي.

أذكر حين سألني، في لحظة، مرافقي بورسلي: «أبو فهمي تشتهي شيء؟».

دون تفكير أسرعت أقول: «أرجع إلى الكويت».

ولا أدري إن كان ذاك ما دفع طبيبي المعالج، وبعد فترة يقول لي جملته التي طالما انتظرت: «يمكنك العودة إلى بلدك».

رفرفت روحي بفرحها، لكن لا أدري لماذا لزمها شؤم غريب. قرأت نظرات عين الطبيب فشعرت به وكأنه يقول: عودة مَنْ لا رجاء في شفائه. قبلت الأمر، فليس لي إلا أهلي وتربة وطني، ولا أنسى يوم الاثنين ٢٦ نوفمبر عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين، يوم عدت إلى وطني وخفق قلبي.. وكما عودتي الأولى بشر وبشر وبشر، الجميع يبارك: «الحمد لله على السلامة».

لقاء أهلي، وفرح الاستقبال وجمهرة الناس من حولي، كل شيء دفع بي لاستنشاق صحة أحلم بها وأتمنّاها، قلت لنفسي:

لا يصح أن تستسلم، ولا يصح أن تنحني للمرض، ولا يصح أن تسلّم جسدك لعدوّك.

* * *

«يا أللـه، لطفك يا رحيم.. عوض يتنفس بصعوبة.. عوض.. عوض..». خالتي تصرخ.

* * *

أخيرًا صاحبي يقترب مني.. الفرح يغمر قلبي.

تفرح روحي، أراه يتقدّم صوب فراشي..

وصوت أبي: «يا ولدي سنلتقي بعد حين بين يدَي رب..».

نلتقي بين يدَيِ الرب؟ أبي يبكي في حين يخطو نحوي، ومعه صاحبي!

* * *

«عوض، عوض.. يا ولدي قل أشهد أن لا إله إلا الله..». خالتي تحتضن رأس عوض في حضنها. ورجفة باردة تمسك بي..

* * *

صاحبي يمشي صوبي، ها هو يدنو مني. أخيرًا سألمسه وأمسك به.

نظرة غريبة تلوح على وجه صاحبي، نظرة ما سبق لي أن رأيتها على مُحيّاه.

تعال يا صاحبي، تعال..

* * *

خالتي تحتضن رأس عوض في حضنها بدموعها، وصوتها عاليًا: «يا وليدي: قُل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله..

أنا أرتجف. أكلّم خالتي: «أنادي أم فهمي ويوسف؟».

«لا، لا..». تردُّ عليَّ بغضب وتهزّ ولدها: قل، قل أشهد أن لا إله إلا الله..».

* * *

الله، الله، ها هو صاحبي يقترب مني.. يدنو. أكاد أشعر به. ها هو يمدُّ يده إليَّ. الآن يمكنني لمسه.

ها هي كفّه تمسك بكفّي..

طوال عمري وهو بعيد عني. الآن فقط، ولأول مرة أمسك به!

* * *

«يما عوض قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

* * *

ها هو صاحبي يدخل الفراش معي.. يتمدد إلى جانبي تحت الغطاء. نصبح واحدًا!

وأبي يصل إليَّ.. يمسك بيدي. يكلّمني: «سنلتقي بين يدَيْ رب العالمين».

أبي يبتسم لي.

أفتح عيني.. أسمع صوت أمي، والمقرئ الحاج محمود يتلو القرآن بصوته الذي أحب.

أنظر إلى أمي. هي تبكي؟

كأن عبد الله يبكي خلفها.

أبتسم لها، هي تصرخ بي: قُل أشهد أن لا إله إلا الله.

لا أدري لماذا تبكي أمي! أردد خلفها: أشهدُ أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمدًا رسول الله.

«وليدي..». تلتفتُ خالتي بدموعها. تخاطبني: «الحمد لله، عوض نطق الشهادة. انظر هو يبتسم!».

تحتضن رأس عوض وقد سقطت رقبته في حضنها، وأغمض عينيه!

* * *

telegram
@yasmeenbook

مشهد ثالث عشر

أُعطية الله

الاثنين، ١٧ ديسمبر ١٩٧٩،
الساعة ٠٢:٠٠ صباحًا

المبدعون أُعطية الله الباقية لبلدانهم!

عوض دوخي (١٩٣٢-١٩٧٩)

انتهت

الكويت، الأربعاء، ٩ يوليو ٢٠٢٥

ذخيرة الحكاية

١ ـ شماغ، ص ١٩: غطاء للرأس، عادة في الكويت يكون بتداخل اللونين الأبيض والأحمر.

٢ ـ المقوع الشرقي، ص ١٩، إحدى مناطق الكويت القديمة، ومكانها الحالي خلف برج «الحمراء».

٣ ـ قحفيّة، ص ١٩: غطاء للرأس على شكل قبة، يستخدمها الرجال، وتُلبس تحت الغترة.

٤ ـ دشداشة، ص ١٩: اللباس الشعبي للأولاد والرجال في الكويت.

٥ ـ شلون: ص ٢١ كلمة دارجة في اللهجة الكويتية/ الخليجية تعني: كيف، وكلمة شلونه: تعني كيف حاله.

٦ ـ بوشية، ص ٢٢: لفظة فارسية، وهي عبارة عن غطاء شفّاف لتغطية وجه المرأة.

٧ ـ الروشنة، ص ٢٣: تجويف في جدار الغرفة، يكون مربعًا أو مستطيل الشكل، تُستخدم لوضع أدوات الزينة وغيرها.

٨ ـ التتن، ص ٢٤: لفظة فارسية تعني التبغ المُستَخدَم لصناعة السيجارة.

٩ ـ شرق، ص ٢٦: أحد مناطق الكويت القديمة، ولا زال يحمل الاسم نفسه.

١٠ ـ فريج، ص ٢٦: حي.

١١ ـ المطبّة، ص ٢٦: اسم أحد أحياء الكويت القديمة، ويقع في منطقة شرق.

١٢ ـ النهمة، ص ٣٦: هي نوع من الغناء يواكب سير العمل في السفينة، انتشر في جميع السواحل الشرقية للخليج العربي.

١٣ ـ نهّام، ص ٣٧: مغني السفينة، الذي يردد فن النهمة.

١٤ ـ زهيرية، ص ٣٧: نوع من الشعر النبطي تتكون قصائده من سبعة أشطر، بحيث تكون الأشطر الثلاثة الأولى لها نفس القافية باستعمال الجناس، والأشطر الثلاثة الثانية لها قافية مغايرة باستعمال الجناس، وينتهي الشطر السابع بنفس قافية الثلاثة أشطر الأولى.

١٥ ـ ملا حمد العسعوسي، ص ٣٧: شاعر شعبي اشتهر بتأليف الزهيريات.

١٦ ـ أو يا مال، ص ٣٧: نوع من التعبير الجماعي يردده النهّام والبحارة للتعبير عما يجيش في صدرهم من الوجد وألم الفراق.

١٧ ـ بوحجّاج، ص ٣٨: لقب يُطلق تجاوزًا على كل من اسمه يوسف. وهنا المقصود يوسف دوخي.

١٨ ـ عودة المهنا، ص ٣٨: (١٨٩٩-١٩٨٤) مغنية كويتية لها فرقة نسائية معروفة، ولقد أدّت الكثير من أغاني التراث الكويتي.

١٩ ـ القلاليف، ص ٣٩ النجّارون صناع السفن الشراعية في الكويت، وفي اللغة: قَلَفَ السفينة: خرز ألواحها بالليف وجعل في خللها القار.

٢٠ ـ بروس، ص ٤٠: في رؤوس.

٢١ ـ همّالي، ص ٤٠: الدمع الهمّال، الدمع السائل.

٢٢ ـ لا رابع، ص ٤١: رابع القوم صادقهم، لارابع، لأصبح صديق.

٢٣ ـ جاسي، ص ٤٢: قاسي.

٢٤ ـ يطري، ص ٤٢: يأتي على بالي.

٢٥ ـ سامرية: ص ٤٣ فن غنائي شعبي من الشعر النبطي، وهو من التراث الفني القديم في الجزيرة العربية.

٢٦ ـ بدر جاسر العيّاف، ص ٤٣: شاعر غنائي كويتي (١٩٢٩-١٩٧٥).

٢٧ ـ بدر بورسلي، ص ٤٨: شاعر غنائي كويتي وُلد (١٩٤٣).

٢٨ ـ ملا بلال، وملا زكريا، ص ٥٢: ملّا بمعنى شيخ الدين، وكان عدد من شيوخ الدين يدرِّسون الأولاد في بيوتهم، يعلّمونهم القراءة والكتابة، ويحفّظونهم آيات القرآن الكريم، إضافة لمبادئ الحساب.

٢٩ ـ البرايح، ص ٥٢: جمع براحة، وتعني الساحة الترابية المنبسطة بين البيوت، وكانت توجد في الأحياء القديمة، حيث يجتمع ويلعب الأطفال.

٣٠ ـ صوت السهارى، ص ٥٤: إحدى أشهر أغاني الفنان عوض دوخي.

٣١ ـ ديوانية، ص ٥٤: اسم يُطلق على مجلس الرجال.

٣٢ ـ شعرية البلاليط، ص ٦٠، طبق أكل شعبي في دول الخليج العربي، مكوّن أساسًا من الشعرية والهيل. والزعفران والسكر والبيض. يُقدّم عادةً على الإفطار في صباح العيد.

٣٣ ـ العرضة، ص ٦٠: رقصة شعبية رجالية تؤدَّى في المناسبات الوطنية والأعياد.

٣٤ ـ يجينا، ص ٦٢: يأتي إلينا.

٣٥ ـ نلعن ثواه، ص ٦٢: نصل به إلى مثواه الأخير/ الموت.

٣٦ ـ حريبنا، ص ٦٢: مَنْ يُحاربنا.

٣٧ ـ الشيخ أحمد الجابر، ص ٦٣: أمير الكويت العاشر (١٨٨٥-١٩٥٠)، وقد تولّى شؤون الحكم للفترة (١٩٢١-١٩٥٠).

٣٨ ـ الفداويّة، ص ٦٣، مفردها «فداوي»، وأصلها يأتي من الفداء والفدائي، ومن يفتدي غيره بنفسه. وهم مجموعة من الرجال يشكّلون الحماية الشخصية للأمير، وهم رهن إشارته، ولا يترددون في تنفيذ أوامره.

٣٩ ـ الشيخ عبد الله الجابر، ص ٦٣: حفيد حاكم الكويت الخامس الشيخ عبد الله بن صباح الصباح (١٩٠٠-١٩٩٦) أدى دورًا مهمًّا في التعليم والثقافة، وكان مستشارًا لأمير الكويت.

٤٠ ـ الشيخ جابر الأحمد، ص ٦٣: أمير الكويت الثالث عشر (١٩٢٦-٢٠٠٦)، وقد تولّى شؤون الحكم للفترة (١٩٧٧-٢٠٠٦).

٤١ ـ مدرسة النجاح، ص ٦٨: مدرسة ابتدائية حكومية تقع في منطقة شرق.

٤٢ ـ الروبية، ٦٨: عملة هندية تداولت في الكويت للفترة (١٨٣٠-١٩٦١)، وقد استُبدِل بها الدينار الكويتي بتاريخ ١ أبريل ١٩٦١.

٤٣ ـ المجدّمي، ص ٦٩: رئيس البحّارة على السفن الشراعية الكويتية، ومساعد النوخذة «ربان السفينة».

٤٤ ـ تبّاب، ص ٦٩: ولد يخدم البحارة في أثناء السفر. ولا يتقاضى التبّاب أجرًا بل يعمل مقابل أكله، ويحصل على الإكراميات من البحارة، والهدف من عمله هو أن يتدرب على مختلف أعمال البحر.

٤٥ ـ الدهريز، ص ٦٩: ممر ضيق مسقوف، يصل ما بين الباب الخارجي للبيت والحوش.

٤٦ ـ سلف، ص ٦٩: مبلغ يُعطى للبحار قبل سفره، ولا يتجاوز ربع أجره الأصلي، ويكون بمنزلة المساعدة لأسرته خلال غيابه في رحلته البحرية.

٤٧ ـ السحاتيت، ص ٧١: جمع سحتيت، وهو صغار اللؤلؤ.

٤٨ ـ يوم الدشّة، ٧٢: يُقال: دَشْ البيت أي دخل، ويوم الدشة، هو يوم دخول البحارة إلى البحر وبدء رحلتهم البحرية.

٤٩ ـ صندوق البحّار، ص ٧٣: هو صندوق خشبي صغير، ويضع به البحار بعض ثيابه وربما بعض المأكولات.

٥٠ ـ قرص عقيلي، ص ٧٣: نوع الكيك التُراثي الكويتي.

٥١ ـ الدرابيل، ص ٧٣: نوع من أنواع الخبز الرقيق يُطوى ليصبح ذا شكل أسطواني، ويُضاف له السكر والدارسين والهيل المسحوق. وهو نوع من الحلويات التراثية الكويتية لا يزال حاضرًا على مائدة الحلويات الكويتية.

٥٢ ـ أرقو خشبهم، ص ٧٤: رقا أو رقى، أي ارتفعت السفينة بسبب المد. أرقو خشبهم، أي رسوا بسفنهم.

٥٣ ـ النوخذة، ص ٧٥: ربّان السفنية.

٥٤ ـ السكّوني، ص ٧٥: هو الشخص الذي يمسك دفة السفينة.

٥٥ ـ السريدان، ص ٧٦: المكان المخصص للطبخ على ظهر السفينة.

٥٦ ـ التانكي، ص ٧٦: كلمة إنجليزية تعني خزان الماء.

٥٧ ـ الحيزة، ص ٧٦: لفة حبال قديمة توضع قرب مكان الطبخ، وتُبلل بالماء كي يوضع عليها قدر الأكل الساخن.

٥٨ ـ بوم، ص ٧٧: أحد أنواع السفن الشراعية الكويتية التي كانت تستخدم للغوص، وللسفر إلى الهند وسواحل إفريقيا الشرقية.

٥٩ ـ الهِيرَات، ص ٧٨: أماكن تجمّع المحّار، ومفردها الهير.

٦٠ ـ يوم القفّال، ص ٧٨: يوم انتهاء موسم الغوص والرجوع إلى الكويت.

٦١ ـ اللومي، ص ٧٩: الليمون الجاف.

٦٢ ـ الرومي، ص ٧٩، عائلة كويتية معروفة، ومشهورة بعملها في البحر.

٦٣ ـ القاز، ص ٧٩: سائل الوقود المستخرج من النفط.

٦٤ ـ بوقمّاز، ص ٧٩، عائلة كويتية عملت في البحر.

٦٥ ـ عائلة الياقوت، ص ٧٩، عائلة كويتية عملت في البحر.

٦٦ ـ الدانة، ص ٧٩: أحد أنواع اللؤلؤ الطبيعي، ويُقصد بها لؤلؤة كبيرة.

٦٧ ـ بورسلي، ص ٧٩، عائلة كويتية عملت في البحر.

٦٨ ـ الياموسة، ص ٧٩: الجاموسة.

٦٩ ـ فهد بن موسى، ص ٧٩، نوخذة سفينة كويتي. والفهد عائلة كويتية عملت في البحر.

٧٠ ـ الطِيران، ص ٨٠: الطار باللهجة الكويتية يعني الدف، والطيران تعني الدفوف.

٧١ ـ عوّاد سالم، ص ٨١: مغني شعبي كويتي (١٩٠٠-١٩٦٩).

٧٢ ـ جبلة، ص ٨١: القبلة، إحدى مناطق الكويت القديمة، وما زالت تحمل الاسم نفسه.

٧٣ ـ المرقاب، ص ٨١: الجزء الجنوبي من مدينة الكويت القديمة.

٧٤ ـ الخمّاري، ص ٨١: فن غنائي شعبي كويتي.

٧٥ ـ اللعبوني، ص ٨١: فن غنائي شعبي كويتي.

٧٦ ـ مكتبة ابن رويّح، ص ٨١: من أوائل المكتبات في الكويت أنشأت عام ١٩٢٠، ولم تزل قائمة في قلب مدينة الكويت حتى وقتنا الراهن.

٧٧ ـ فن الصوت، ص ٨٢: قالب غنائي خليجي، ازدهر تحديدًا في الكويت والبحرين في منتصف القرن ١٩، وهو غناء رجالي يؤديه مطرب فردي بمصاحبة بعض العازفين على العود والكمان والمرواس.

٧٨ ـ المرواس، ص ٨٢: آلة إيقاعية صغيرة الحجم، يمسكها العازف بيد وينقر عليها باليد الأخرى.

٧٩ ـ المُوجْب، ص ٨٩: حفل يُقام للشخص الذي يعتقد أهله أنه قد مُسَّ بشيء من الجن، وتُقرأ فيه مدائح للنبي صلى الله عليه وسلم، واستذكار كرامات السيد أحمد الرفاعي، أو السيد عبد القادر الجيلاني.

٨٠ ـ القادري، ص ٨٩: هو فن شعبي، تعود تسميته إلى أحد الطرق الصوفية التي تنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٨١ ـ المُطوّعة، ص ٨٩: المطوّعة هي امرأة حافظة للقرآن، وعادة تدرّس للبنات في بيتها لتعلّمهن بعض آيات من القرآن الكريم، ومبادئ القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب.

٨٢ ـ جاني، ص ٩٣: أتى إليَّ.

٨٣ ـ سيب، ١٠١: الشخص الذي يساعد الغواص في أثناء نزوله للغوص. يقف على حافة السفينة منتبهًا يترقب الإشارات التي يرسلها الغواص عن طريق تحريك الحبل الموصول بينهما بطرق معينة يفهمها السيب من شد وإرخاء.

٨٤ ـ فريج الشيوخ، ص ١٠٢: أحد أحياء مدينة الكويت القديمة.

٨٥ ـ البشتختة، ص ١٠٤: صندوق الموسيقى وتعني باللغة الإنجليزية "Phonograph" الحاكي أو الفونوغراف.

٨٦ ـ محمد بن فارس، ص ١٠٤: مغنٍّ تراثيّ من البحرين (١٨٩٥-١٩٤٧).

٨٧ ـ ضاحي بن وليد، ص ١٠٤: مغنٍّ تراثي من البحرين (١٨٩٥- ١٩٤١).

٨٨ ـ اللوكس، ص ١٠٥: فانوس كبير بإضاءة قوية.

٨٩ ـ قلاطة، ص ١٠٧: حصة الغواص عن موسم الغوص.

٩٠ ـ طه فون، ص ١٢٣: محل تسجيلات في كويت الثلاثينيات والأربعينيات لصاحبه طه صبري علي.

٩١ ـ عبد الله فضالا، ص ١٢٣: هو عبد الله فضالة؛ مطرب كويتي (١٩٠١- ١٩٦٧).

٩٢ ـ أحمد الزنجباري، ص ١٢٨: اسمه الحقيقي: أحمد سالم سعيد الشعيبي، وُلد عام ١٩١٧ في مدينة زنجبار، توفي عام (١٩٧٧).

٩٣ ـ قوري، ص ١٢٩: إناء الشاي.

٩٤ ـ الطنبورة، ص ١٣٠: فن شعبي شائع في منطقة الخليج وترجع أصوله إلى إفريقيا.

٩٥ ـ اللّيوة، ص ١٣٠: فن شعبي ذو أصول أفريقية، انتقل إلى دول الخليج العربي عن طريق رحلات السفر والتجارة.

٩٦ ـ عبد اللطيف الكويتي: ص ١٣٠، عبد اللطيف عبد الرحمن العبيد (١٩٠١-١٩٧٤)، أحد أبرز المطربين الكويتيين، وهو أول مطرب كويتي يغني في الإذاعات العربية والأجنبية.

٩٧ ـ إذاعة شيرين، ص ١٣٠: إذاعة كويتية محلية خاصة، لصاحبها السيد

مراد بهبهاني. كانت تبث الأغاني بمجال محدود في «ساحة الصفاة»، وهي ساحة تتوسط مدينة الكويت القديمة. عملت الإذاعة خلال الفترة (١٩٤٨-١٩٥١).

٩٨ ـ مراد بهبهاني، ص ١٣٠، أحد التجار الكويتيين، عُرف بعشقه للفن (١٩٢١-٢٠٠٥).

٩٩ ـ دنبك: ص ١٣٢، وتُسمّى «الدربوكة»: آلة موسيقية إيقاعية عربية.

١٠٠ ـ أوميجا، ص ١٣٧: إذاعة كويتية محلية خاصة، لصاحبها السيد عبد الله الشرهان. كانت تبث الأغاني بمجال محدود في «ساحة الصفاة»، وهي ساحة تتوسط مدينة الكويت القديمة.

١٠١ ـ ليش، ص ١٣٧: كلمة في اللهجة الكويتية، وتعني: لماذا؟

١٠٢ ـ السور، ص ١٣٩: المقصود هو السور الثالث، الذي شُيّد في عهد أمير الكويت الشيخ سالم المبارك الصباح، وبوشر في بنائه بتاريخ ١٤ يونيو ١٩٢٠، وقد هُدِم السور في عهد أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم، بتاريخ ٤ فبراير ١٩٥٧.

١٠٣ ـ التثمين، ص ١٤٠: صدّرت الكويت أول شحنة بترول بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٤٦، وبعد تدفّق أموال البترول على الكويت، باشرت الحكومة بتثمين بيوت الكويتيين في المناطق القديمة «شرق، والقبلة، والمرقاب» بمبالغ عالية، بغية تشجيعهم على الانتقال إلى المدن الجديدة والبناء وفق أحدث التصاميم المعمارية وبأحدث مواد البناء، لتخطيط العاصمة تخطيطًا عصريًّا.

١٠٤ ـ قصر دسمان، ص ١٤١: شيّده أمير الكويت الثامن الشيخ جابر المبارك الصباح عام ١٩٠٤ وأكمل بناءه الشيخ أحمد الجابر الصباح أمير الكويت العاشر عام ١٩٣٠، وجعله مقر سكنه الرسمي.

١٠٥ ـ قصر السيف، ص ١٤١: هو قصر الحكم في دولة الكويت، وقد بُني عام ١٩٠٤، في عهد الشيخ مبارك الكبير، وتمَّ تطويره في عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح عام ١٩٦١، ولا يزال قصر السيف هو قصر الحكم حتى وقتنا الراهن.

١٠٦ ـ الطواويش، ص ١٤١: تجار اللؤلؤ.

١٠٧ ـ مدينة الأحمدي، ص ١٤٣: سُميت المدينة نسبةً إلى الشيخ أحمد الجابر الصباح، لكونها أُنشِئت في فترة حكمه. تقع مدينة الأحمدي في محافظة الأحمدي، وهي مقر شركة نفط الكويت.

١٠٨ ـ المستشفى الأميري: ص ١٤٣ أول مستشفى حكومي بُني في الكويت عام ١٩٤١.

١٠٩ ـ الشيخ جابر العلي، ص ١٤٤: (١٩٢٨-١٩٩٤)، شغل مناصب حكومية كثيرة من بينها: كان وزيرًا للكهرباء والماء، فوزيرًا للإرشاد والأنباء، ثم وزيرًا للإعلام، ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء للفترة (١٩٦٢-١٩٨١)، ثم أصبح مستشارًا لأمير الكويت.

١١٠ ـ قصر نايف: ص ١٥٢ قصر أُقيم من الطين على صيهد مرتفع نايف في عام ١٩١٩، في عهد الشيخ سالم المبارك الصباح، أمير الكويت التاسع، وكان القصر مجاورًا لسور الكويت الثالث.

١١١ ـ سعود الراشد، ص ١٦٦: مطرب كويتي (١٩٢٢-١٩٨٨).

١١٢ ـ الشيخ عبد الله السالم، ص ١٧٦: أمير الكويت الحادي عشر (١٨٩٥-١٩٦٥)، وقد تولّى شؤون الحكم للفترة (١٩٥٠-١٩٦٥).

١١٣ ـ الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة، ١٩٢: (١٩٣١-٢٠٠٤)، شاعر بحريني وعاشق للفن التراثي الخليجي.

١١٤ ـ نوّخ ذلوله، ص ١٩٦: نوّخ بمعنى أناخ، والذلول هي الإبل، أي أبرك الإبل.

١١٥ ـ الردحة، ص ١٩٦: نوع من الغناء/ الرقص الشعبي الكويتي.

١١٦ ـ العاشوري، ص ١٩٦: نوع من الغناء الشعبي الكويتي.

١١٧ ـ البشت، ص ١٨٣: والجمع بشوت، وهو العباءة الرجالية.

١١٨ ـ صقر الرشود، ص ٢٢٧: (١٩٤١-١٩٧٨) مخرج مسرحي وممثل ومؤلف كويتي.

١١٩ ـ رضا الفيلي، ص ٢٢٩: (١٩٤١-٢٠١٤) إعلامي كويتي، وأول مذيع تليفزيوني كويتي.

١٢٠ ـ محمود الكويتي، ص ٢٢٩: محمود عبد الرزاق النقي، (١٩٠٤-١٩٨٢) مطرب كويتي.

١٢١ ـ فرقة الفنطاس الشعبية، ص ٢٢٩، فرقة غنائية شعبية، أُسِّست في الكويت عام ١٩١٩، وما زالت موجودة حتى يومنا الحاضر.

١٢٢ ـ عبد الله الفرج: ص ٢٣٠، عبد الله بن محمد بن فرج بن سليمان، (١٨٣٦-١٩٠١)، شاعر موهوب ولِد في الكويت، وفي بداية حياته سافر إلى الهند طلبًا للعلم، فأجاد وأتقنَ اللغة الهندية، وهناك تعلَّم فنون الموسيقى والعزف على العود والكمان.

١٢٣ ـ العَدامة: ص ٢٣٠، التل الصغير.

١٢٤ ـ عبد المحسن الرفاعي، ص ٢٣١، (١٩٢٩-٢٠٠٢) شاعر كتب الشعر النبطي، والقصيدة الشعبية المُغناة.

١٢٥ ـ بدر المضف: ص ٢٤٣، (١٩٤١-٢٠١٣) مخرج وإعلامي كويتي.

١٢٦ ـ الجليعة: ص ٢٤٤، منطقة من مناطق محافظة الأحمدي في جنوب الكويت، ويمتاز شاطئ الجليعة بمياهه الزرقاء ورماله البيضاء.

١٢٧ ـ فرقة العميري: ص ٢٤٤، فرقة للتراث والغناء الكويتي أُسست عام ١٩٥٨.

١٢٨ ـ السنغني: ص ٢٤٤، أحد أصعب أنواع الغناء البحري الكويتي، وعادة يؤدّى عند إنزال السفن الجديدة إلى البحر.

إصدارات المؤلف

● **الرواية:**

١ ـ «خطف الحبيب»، صدرت لدى ١٤ ناشرًا عربيًا، وفي جميع العواصم العربية، ٢٠٢١.

٢ ـ «حابي»، دار ذات السلاسل، الكويت، ٢٠١٩، ودار الشروق المصرية، ٢٠١٩.

٣ ـ «النجدي»، دار ذات السلاسل، الكويت، ٢٠١٧.

٤ ـ «في الهُنا»، دار بلاتينيوم، طبعة ١، الكويت، ٢٠١٤، طبعة ٢، ٢٠١٥، طبعة ٣، ٢٠١٦.

٥ ـ «الثوب»، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٩.

٦ ـ «سمر كلمات»، دار المدى، طبعة ١، دمشق، ٢٠٠٦، طبعة ٢، ٢٠٠٨، طبعة ٣، نوفابلس، الكويت، ٢٠١٣.

٧ ـ «رائحة البحر»، دار المدى، طبعة ١، دمشق، ٢٠٠٢، طبعة ٢، ٢٠٠٦.

٨ ـ «ظل الشمس»، دار شرقيات، طبعة ١، القاهرة ١٩٩٨. طبعة ٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢.

● **Translated novels:**

9 - "Gates of Paradise", Interlink Publishing, Massachusetts, USA, 2024.

10 - "Les Portes du Paradis", Actes Sud, France, 2023.

11 - "Shadow of the Sun", Banipal Books, London, 2023.

12 - "海", Shaanxi People's Publishing House, China, 2023.

13 - "Hapi", Sindbad, Actes Sud, France, 2022.

14 - "al-Najdi, Storia di un marinaio", MReditori, Italy, 2022.

15 - "Nechdi Le Marino", Editorial Verbum, Spain, 2022.

16 - "Kaptan" Ayrinti, Turkiya, 2021.
17 - "Here and Now", World Affairs Press Co. China, 2021.
18 - "Al-Najdi Le marin" Sindbad, Actes Sud, France, 2020.
19 - "The Mariner", Banipal Books, London, 2020.
20 - "Outclassed on Kuwait", Hamad Bin Khalifa University Press, Qatar, 2018.
21 - "L'ombre Du Soleil", Sindbad, Actes Sud, France, 2018.
22 - "Samar", Editorial Verbum, Spain, 2016.
23 - "Ici Meme", Sindbad, Actes Sud, France, 2016.

- **المجموعات القصصية:**

٢٤ ـ «حكاية باقية»، مؤسسة غايا للإبداع، القاهرة، ٢٠٢٥.
٢٥ ـ «ضوء كويتي»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/ عمّان، ٢٠٢٤.
٢٦ ـ «الدكتور نازل»، دار ذات السلاسل، الكويت، ودار الشروق، القاهرة، ٢٠٢٣.
٢٧ ـ «رمادي داكن»، دار ذات السلاسل، الكويت، ودار الشروق، القاهرة، ٢٠١٨.
٢٨ ـ «نوير»، قصة للناشئة، دار كلمات، الشارقة، ٢٠١٦.
٢٩ ـ «الكرسي»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢.
٣٠ ـ «سرقات صغيرة»، دار الشروق، القاهرة، طبعة أولى ٢٠١١، طبعة ثانية ٢٠١٢.
٣١ ـ «شمس» مختارات قصصية، سلسلة آفاق عربية، القاهرة ٢٠٠٥.
٣٢ ـ «حكايا رملية»، دار المدى، دمشق ١٩٩٩.
٣٣ ـ «مرآة الغبش»، دار المدى، دمشق ١٩٩٧.
٣٤ ـ «أغمض روحي عليك»، دار الآداب، بيروت ١٩٩٥.
٣٥ ـ «أبو عجاج طال عمرك»، دار الآداب، بيروت ١٩٩٢.

● **الدراسات:**

٣٦ ـ «كيف تكتب قصة قصيرة أو رواية.. منهج الكتابة الإبداعية»، ذات السلاسل، الكويت، ٢٠٢٤.

٣٧ ـ «عبدالعزيز حسين.. رجل فكرٍ ودولة»، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ٢٠٢٢.

٣٨ ـ «لون الغد.. رؤية المثقف العربي لما بعد كورونا»، دار ذات السلاسل، الكويت ٢٠٢٠.

٣٩ ـ «مبادئ الكتابة الإبداعية للقصة القصيرة والرواية»، دار ذات السلاسل، الكويت ٢٠١٨.

٤٠ ـ «إسماعيل فهد إسماعيل.. كتابة الحياة وحياة الكتابة» المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ٢٠٠٩.

٤١ ـ «المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب»، الكويت ٢٠٠٤.

٤٢ ـ «البصير والتنوير.. رجل وقضية» دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٠.

● **المسرح:**

٤٣ ـ «المسرح في الكويت.. رؤية تاريخية»، الكويت ٢٠٠٢.

٤٤ ـ «مسرحية عرس النار»، دار المدى، دمشق، ٢٠٠١.

telegram
@yasmeenbook
مكتبة ياسمين

دوخي: تقاسيم الصبا

من أزقةِ حي «شرق» العتيقة، وبصوتٍ يحمل في طبقاته ملوحة البحر وقسوة الانتظار، تبدأ حكاية المطرب والملحن الكويتي الأشهر «عوض دوخي».

في ليلةٍ شتائيةٍ فاصلة، يسترجع الفنان الكبير شريط ذكرياتٍ لم يطوِه النسيان. نعود معه إلى زمن الأشرعة والكدح، لنرى ذلك الفتى الصغير الذي واجه مخاوفه فوق ظهر السفينة، محتميًا بالغناء من وحشة الموج، وكيف ترى عينا طفل الحياة عبر الموسيقى، قبل أن يتحوَّل بصوته الاستثنائي إلى ربَّانٍ للطرب، يقود دفة الأغنية الكويتية نحو آفاقٍ جديدة.

يقدم طالب الرفاعي نصًّا سرديًّا ثريًّا، يمزج فيه سيرة الإنسان بتاريخ المكان. نعيش تحولات المجتمع الكويتي من بساطة ما قبل النفط إلى صخب الحداثة، ونرافق البطل في عالمه النفسي الخاص؛ حيث يحاور صديقًا غير مرئي، ويستلهم من أوجاعه ألحانًا شكلتْ وجدان جيل كامل.

إنها رحلة إنسانية عذبة، تروي قصة فنان أدرك مبكرًا أن الألم قد يصنع الجمال، وأن الصوت الصادق هو الباقي، حتى بعد أن تصمت الريح.

طالب الرفاعي؛ كاتب وروائي كويتي، صدر له كثير من الروايات والمجموعات القصصية. حاز جوائز عربية وعالمية مرموقة، وتُرجمت أعماله إلى: الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، والصينية، والتركية. يعمل أستاذًا لمادة الكتابة الإبداعية في الجامعة الأمريكية في الكويت.

مكتبة ياسمين

دار الشروق
www.shorouk.com